سورة يوسف

مكية وهي مائة وإحدى عشرة آية

سورة يوسف عليه السلام وهي مائة وإحدى عشرة آية مكية. سبب نزولها على ما روي عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: أُنزل القرآن على رسول الله ﷺ، فتلاه على أصحابه زماناً، فقالوا يا رسول الله: لو قصصتَ علينا فنزلت، وقيل: هو تسليةُ الرسول عما يفعله به قومه، بما فعلت إخوة يوسف، وقد جاء عن ابن عباس وجابر بن زيد أن يونس نزلت، ثم هود، ثم يوسف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾.

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي هذه آيات الكتاب المعجز ﴿ٱلْمُبِينِ﴾؛ أي الظاهر أمره في كونه من عند الله تعالى، المبين لما فيه من الأحكام والشرائع، وخفايا الملك والملكوت.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي الكتاب المنعوت بهذه الأوصاف الجليلة ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ أي أنزلناه بلغة العرب كتاباً عربياً، مؤلفاً من هذه الأحرف العربية

التي تعرفونها وتنطقون بها، واستدل جماعة منهم الشافعي وأبو عبيدة والقاضي أبو بكر، بأن وصف القرآن بكونه عربياً، على أنه لا معرَّب فيه، وقالوا: من زعم أن فيه غير العربية فقد أعظم القول، وقال غيرهم: كان للعرب بعض مخالطة، لأهل سائر الألسنة في أسفار لهم، فعلقت من لغاتهم ألفاظ، واستعملتها في أشعارها ومحاوراتها، حتى جرت مجرى العربي الفصيح، وعلى هذا الحدِّ نزل القرآن، فأصولها وإن كانت أعجمية، لكنها اختلطت بكلام العرب فصارت عربية ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي لكي تفهموا معانيه، وتحيطوا بما فيه من البدائع، فتعلموا على أنه خارج عن طوق البشر.

﴿ذ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ نخبرك ونحدثك من قص أثره إذا اتبعه ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ أي قصصاً هي أحسن القصص، والمراد مضمون هذه السورة، ووجه أحسنيتها اشتمالها على حال حاسد ومحسود، ومالك ومملوك، وشاهد ومشهود، وعاشق ومعشوق، وحبس وإطلاق، وخصب وجدب، وفراق ووصال، وسقم وصحة، وذل وعز، وقد أفادت أن لا دافع لقضاء الله تعالى من قدره، وأن الحسد سبب الخذلان، وأن الصبر مفتاح الفرج وفيه مع بيان الواقع، إيهام لما في اقتصاص أهل الكتاب من الخلل، ألا ترى أن هذه القصة مذكورة في التوراة مع أن شيئاً منها لا يشابه هذه السورة ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ﴾ بإيحائنا ﴿إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي هذا القرآن المعجز، الذي من ضمنه هذه السورة ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي من قبل إيحائنا إليك هذا القرآن ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ أي عن هذه القصة، لم تخطر ببالك ولم تقرع سمعك، وهو تعليل لكونه موحى.

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ ﴾ شروع في القصة، ويوسف اسم عبري هو ابن يعقوب، وجده الأعلى إبراهيم، أخرج البخاري عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الكريمُ ابنُ الكريم، ابن الكريم ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم»[1] وقد اجتمع في يوسف مع ما ذكر من النبوة، حسن الصورة، وعلم الرؤيا، ورياسة الدنيا، وحياطة الرعايا في القحط والبلاء ﴿ لِأَبِيهِ ﴾ يعقوب عليه السلام ﴿ يَٰٓأَبَتِ ﴾ أصله يا أبي حذفت الياء فعوض عن الياء تاء التأنيث، وكسرت التاء لتدل على الياء المحذوفة ولذلك لا يجتمعان ولا يقال يا أبتي ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ ﴾ أي في المنام، من الرؤيا لا من الرؤية لقوله تعالى: ﴿لا تقصص رؤياك﴾ فالرؤيا في المنام، والرؤية بالعين، والرأيُ بالقلب ﴿ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ قيل الشمس والقمر أبواه والكواكب أخوته، وتخصيص الشمس والقمر لاختصاصهما بالشرف، وتأخيرهما لأن سجودهما أبلغ وأعلى ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴾ استئناف كأن سائلاً قال: كيف رأيتهم فأجاب بذلك، وإنما أجري مجرى العقلاء في الضمير، لوصفها بوصف العقلاء أعني السجود، وعبرت الشمس بأبيه، والقمر بأمه، روي ذلك عن قتادة.

﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ يعقوب، ﴿ يَٰبُنَيَّ ﴾ صغَّره للشفقة لصغر سنه، لأنه كان ابن اثنتي عشرة سنة ولما عرف يعقوب من هذه الرؤيا أن يوسف يبلغه الله

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٨/ ٣٦١.

تعالى مبلغاً جليلاً، وينعم عليه بشرف الدارين، خاف عليه حسد الإخوة، فقال له صيانة ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ﴾ وحقيقتها أن الله سبحانه، يخلق في قلب النائم اعتقادات، كما يخلقها في قلب اليقظان، وقد جعل سبحانه تلك الاعتقادات، عَلَماً على أمور أخر، يخلقها في ثاني الحال، وقيل: هي أحاديث المَلَك الموكَّل بالأرواح إن كانت صادقة، ووسوسةُ الشيطانِ والنفسِ إن كانت كاذبة، ونُسب هذا إلى المحدثين، وفي الصحيح عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبُّها، فإنها من الله تعالى، فليحمد الله، وإذا رأى غير ذلك مما يكره، فإنما هي من الشيطان، فليستعذ بالله تعالى من شرِّها، ولا يذكرها لأحد، فإنها لا تضره»[1] ﴿عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ الذين يخشى غوائلهم، يريد إخوته من أبيه، أما «بنيامين» الذي هو شقيق يوسف، فليس بداخل تحت هذا النهي ﴿فَيَكِيدُواْ﴾ أي فيفعلوا ﴿لَكَ﴾ فيحتالوا لإهلاكك ﴿كَيْدًا﴾ متيناً لا تقدر على ردِّه، ولا تستطيع دفعه، وليس ذلك من الغيبة المحظورة ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ﴾ أي لهذا النوع ﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة، فلا يألو جهداً في إغواء إخوتك، وحملهم على ما لا خير فيه، من إثارة الحسد فيهم، حتى يحملهم على الكيد، والذي عليه الأكثر سَلَفاً وخلفاً، أنهم لم يكونوا أنبياء أصلاً. وذكر ابن تيمية أنّ الذي يدل عليه القرآن، أن إخوة يوسف ليسوا بأنبياء، وليس في القرآن ولا عن النبي ﷺ، بل ولا عن أحد من الصحابة خبرٌ بأنَّ الله نبَّأهم، ولمَّا نبَّهه على أن لرؤياه شأناً عظيماً، وحذَّره مما حذَّره، شرع في تعبيرها على وجه إجمالي، فقال تقدست أسماؤه:

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الرؤيا ١٢/ ٣٦٩ والترمذي رقم ٣٤٤٩.

﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الاجتباء البديع الذي شاهدت آثاره في عالم المثال من سجود تلك الأجرام العلوية لك وعلى وقفه ﴿ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ يختارك لجناب كبريائه، ويصطفيك للنعمة والملك، ومراده عليه السلام إطاعة أبويه وإخوته له، لكنه لم يصرح به حذراً من إذاعته ﴿ وَيُعَلِّمُكَ ﴾ وهو يعلمك ﴿ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ تعبير الرؤيا إذ هي إخبارات غيبية يخلقها الله تعالى في قلب النائم، أو أحاديث المَلك، إن كانت صادقة، أو النفس والشيطان إن لم تكن كذلك، أشار بذلك إلى ما سيقع من يوسف من تعبير الرؤيا، وإنما عرف يعقوب ذلك بطريق الفراسة ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ ﴾ بأن يضم النبوة إلى الملك، ويجعله تتمة لها، وفي تعليم التأويل إشارة إلى استنبائه لأن ذلك لا يكون إلا بالوحي، وحاصل المعنى: كما أكرمك بهذه الرؤيا المبشّرة الدالة على سجود إخوتك لك، يكرمك بالنبوة والعلم، الذي تعرف به أمثال ما رأيت، وإتمام نعمته عليك ﴿ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ وهم أهله من بنيه وغيرهم، إتمام النعمة على يوسف بالنبوة وعلى آل يعقوب باعتبار أنهم يغتنمون آثاره من العز والجاه والمال ﴿ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ التعبير عنهما بالأب مع كونهما من أجداده، للإشعار بكمال ارتباطه بالأنبياء الكرام، وإتمامُ النعمة لإبراهيم بالنبوة، وباتخاذه خليلاً، وبإنجائه من النار وعلى إسحق بالنبوة كذلك، وبإخراج يعقوب من صلبه ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ يفعل ما ذُكر لأنه ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بكل شيءٍ، فيعلم من يستحق الاجتباء، كما قال الله تعالى: ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فاعل لكل شيء، حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة، فيفعل على سنن علمه وحكمته.

﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ﴾ أي في قصتهم ﴿ ءَايَٰتٌ ﴾ أي علاماتٌ دالة على قدرته تعالى وحكمته ﴿ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ لكل من سأل قصتهم أو للطالبين للآيات المعتبرين بها.

﴿ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ ﴾ أي شقيقه «بنيامين» ﴿ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا ﴾ وإنما قالوا هذا حسداً منهم ليوسف، لمَّا رأوا ميل يعقوب إليه، وكثرة شفقته عليه، ولم يُثَنَّ مع أن المخبر عنه به اثنان، لأن أفعل التفضيل لا يُفرَّقُ فيه بين الواحد وما فوقه، ولا بين المذكَّر وما يقابله، وجيء بلام الابتداء، لتحقيق مضمون الجملة وتأكيده، أي كثرةُ حبِّه لهما، أمرٌ ثابتٌ لا شبهة فيه ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ أي والحال أنَّا جماعة، قادرون على الحل والعقد، أحقَّاء بالمحبة من الصغيرين، والعصبة والعِصَابةُ: العشرةُ فما زاد، سُمُّوا بذلك لأن الأمور تتعصَّب بهم أي تُشدُّ فتقوى ﴿ إِنَّ أَبَانَا ﴾ في ترجيحهما علينا في المحبة مع فضلنا عليهما ﴿ لَفِى ضَلَٰلٍ ﴾ أي خطأ في الرأي[1]، وذهاب عن طريق العدل ﴿ مُّبِينٍ ﴾ ظاهر الحال واضح، وإنما أحبه عليه السلام أكثر منهم، لما رأى عليه من مخايل الخير ما لم يرَ فيهم، وزاد ذلك الحب بعد الرؤيا، ولا لوم على الوالد، في تفضيله بعض ولده على بعضٍ في المحبة، لمثل ذلك، وأن المحبة ليست مما تدخل تحت وسع البشر، ظنَّ أبناؤه أنَّ ما كان منه عن اجتهاد، وأنه قد أخطأ في ذلك، والمجتهد يخطىء ويصيب.

﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ ﴾.

---

(١) لم يريدوا الضلال في الدين، الذي يقابل الهدى والإيمان، إذ لو أرادوه لكفروا، وإنما أرادوا أنه في خطأ واضح لإيثاره يوسف وأخاه عليهم في المحبة، فتنبه والله يرعاك.

﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ ﴾ قال بعضهم مخاطباً للباقين: اقتلوا يوسف، ويُروى أن القائل شمعون، والباقون كانوا راضين ﴿ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾ التنكير للإبهام، أي أرضاً مجهولةً بعيدة عن العمران ﴿ يَخْلُ ﴾ يخلص ﴿ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ فيقبل عليكم بكليته، ولا يلتفت عنكم إلى غيركم ﴿ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ من بعد قتله وطرحه ﴿ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴾ بالتوبة عما جنيتم به من الذنب.

﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ ﴾ هو يهوذا وكان أحسنهم فيه رأياً وهو الذي قال: ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ ﴾ ﴿ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ ﴾ وإنما لم يُذكر أحدٌ منهم باسمه، ستراً على المسيء، وكلٌّ منهم لم يخل عن الإساءة، وإن تفاوتت مراتبها، أظهره في مقام الإضمار، استجلاباً لشفقتهم عليه، واستعظاماً لقتله ﴿ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ﴾ أي في قعره وغوره، وغيابة الجب: قعره ﴿ يَلْتَقِطْهُ ﴾ يأخذه ﴿ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ ﴾ أي بعض الذين يسيرون في الأرض، قال الهروي: الغيابة في الجب شبه كهف في البئر فوق الماء، يغيب ما فيه عن العيون ﴿ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ بمشورتي لم يبتَّ القول تأليفاً لقلوبهم، وتوجيهاً لهم إلى رأيه.

﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ﴾ خاطبوه بذلك تذكيراً لرابطة الأخوَّة بينهم وبين يوسف، ليتسببوا بذلك إلى استنزاله عن رأيه، في حفظه منهم، حين أحسَّ منهم بأمارات الحسد ﴿ مَا لَكَ ﴾ أيْ أيُّ شيءٍ لك ﴿ لَا تَأْمَنَّا ﴾؟ أي لا تجعلنا أمناء ﴿ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ مع أنك أبونا، ونحن بنوك، وهو أخونا ﴿ وَإِنَّا

﴿لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ مريدون له الخير، ومشفقون عليه، ليس فينا ما يخلُّ بذلك، والاستفهامُ «بِمَالَكَ» فيه معنى التعجب، والكلام ظاهر في أنه تقدم منهم سؤال أن يخرج يوسف معهم، فلم يرض أبوهم بذلك.

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾ إلى الصحراء ﴿يَرْتَعْ﴾ أي يتسع في أكل الفواكه ونحوها، فإن الرتع هو الاتساع في الملاذِّ، قال الراغب: إن الرتع حقيقةٌ في أكل البهائم، ويُستعار للإنسان إذا أريد به الأكل الكثير ﴿وَيَلْعَبْ﴾ بالاستباق والتناضل ونظائرهما، وإنما قالوا ذلك، لتحقيق ما راموا من استصحاب يوسف، بتصويرهم له بصورة ما يلائم حاله ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ من أن يناله مكروه، أكَّدوا مقالتهم بأصناف التأكيد، من إيراد الجملة اسمية، وتحليتها بإنَّ واللام، وإسناد الحفظ لكلِّهم وتقديم «له» على الخبر، احتيالاً في تحصيل مقصدهم.

﴿قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ يعقوب ﴿إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ﴾ أي يحزنني ذهابكم به لشدة مفارقته عليَّ، وقلة صبري عنه، ومع ذلك ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ وقد لقَّنهم العلة، وكما قيل: «إن البلاء موكَّل بالمنطق»[1] ﴿وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ لاشتغالكم بالرتع واللعب أو لقلة اهتمامكم بحفظه.

﴿قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

---

(١) هذا من الأمثال العربية المشهورة، يعني أن نطق الإنسان يكون سبباً لوقوعه في المصيبة والكرب فكأن يعقوب عليه السلام لقنَّهم حجة في الكيد ليوسف.

﴿ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ والحال أنَّا جماعةٌ أقوياء أشداء، جديرة بأن تعصَّب بنا الأمور العظام ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴾ أي لهالكون ضعفاً، مستحقون لأن يدعى علينا بالخسار، وإنما اقتصروا على جواب خوف يعقوب من أكل الذئب، لأنه هو السبب القوي في المنع وكانوا يشوِّقون يوسف لأن يذهب معهم، فرجا هو أيضاً أباه ليذهب معهم، وقد كان يعقوب يحب تطييب قلب يوسف، فاغترَّ بقولهم وأرسله معهم.

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ ﴾ أي عزموا عزماً مصمماً على ﴿ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ ﴾ هي بئر بين مصر ومدين فأتوا إلى البئر، فربطوا يديه، ونزعوا قميصه لما عزموا تلطيخه بالدم احتيالاً لأبيه فدلوه فيها ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ ﴾ أي أعلمناه عند ذلك، تبشيراً له بما يؤول إليه أمره، وإزالةً لوحشته، وتسليةً له، وكان ذلك على ما روي عن مجاهد بالإلهام ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا ﴾ أي لتتخلصنَّ مما أنت فيه من سوء الحال، ولتحدثنَّ إخوتك بما فعلوا بك ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بأنك يوسف لتباين حالك هذا، وحالك يومئذ، بعلو شأنك، وكبرياء سلطانك.

﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً ﴾ آخر النهار، من بعد صلاة المغرب إلى العشاء ﴿ يَبْكُونَ ﴾ متباكين بالكذب، يذرفون الدموع الكاذبة[1]، ولمَّا سمع بكاءهم فزع يعقوب، وقال: ما لكم يا بَنيَّ وأين يوسف؟.

---

(١) هذه دموع التماسيح، دبَّروا مكيدة لأخيهم يوسف المسكين، ثم جاؤوا في المساء يذرفون عليه الدموع، وهي دموع كاذبة، واختاروا المساء لأن الليل أخفى للويل كما =

﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ .

﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ أي متسابقين في العدو والرمي ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا ﴾ أي ما نتمتع من الثياب والأزواد وغيرهما مما يلزم للرعاة ﴿ فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾ أي فافترسه الذئب، عقيب ذلك، فكأنهم قالوا: لم نقتصر في المحافظة عليه، بل تركناه في مأمن عند متاعنا، وما فارقناه إلاَّ ساعة يسيرة، فكان ما كان ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ بمصدِّق لنا في هذه المقالة، الدالة على عدم تقصيرنا في أمره ﴿ وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴾ أي ولو كنا عندك وفي اعتقادك موصوفين بالصدق والثقة، لاتهامنا في يوسف لشدة محبتك إياه.

﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ .

﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ ﴾ أي جاؤوا فوق قميصه بدم ﴿ كَذِبٍ ﴾ أي كاذب، وُصف بالمصدر مبالغة، كأنه نفس الكذب. والمعنى: أتوا بدم كذب فوق قميصه، وكان ذلك الدم دم سخلة ذبحوها، ولطخوا بدمها القميص، كما روي عن ابن عباس ومجاهد، وعن قتادة أنهم أخذوا ظبيةً فذبحوها، فلطخوا بدمه القميص، ولما جاؤوا به ألقاه على وجهه وبكى، وقال: تالله ما رأيتُ كاليوم ذئباً أرحم من هذا، أكل ابني ولم يمزِّق عليه

= يقال في الأمثال، روي أن امرأةً تحاكمت إلى شريح القاضي فجاءت تبكي بدموع سخية، فقال الشعبي: أما تراها يا أبا أمية تبكي؟ فقال له شُرَيْح: لقد جاء إخوة يوسف أباهم عشاءً يبكون وهم ظلمة كَذَبة، لا ينبغي للإنسان أن يقضي إلا بالحقِّ، ولا يتأثر ببكاء الباكين!!.

قميصه!! فلما علم كذبهم ﴿قَالَ﴾ يعقوب ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾ أي زينت وسهَّلت لكم ﴿أَمْرًا﴾ من الأمور منكراً، لا يوصف ولا يُعرف، وأصل التسويل كما قال الراغب: هو تزيين النفس لما تحرص عليه، وتصوير القبيح بصورة الحسن، وفي الكلام حذفٌ أي لم يأكله الذئبُ، بل سوَّلت وزيَّنتْ الخ، وعِلْمُه بكذبهم حصل من سلامة القميص، وإنما حزن لما خشي عليه من المكروه، والشدائد غير الموت، وقيل إنما حزن لفراقه وفراقُ الأحبة مما لا يُطاق ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي فأمري صبرٌ جميل، والصبر الجميل الذي لا شكوى فيه إلى الخلق ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾ أي المطلوب منه العون على الصبر على هذه المصيبة ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ الوصف ذكر الشيء بنعته، وهو قد يكون صدقاً وقد يكون كذباً، والمراد به هنا الثاني، كما في قوله سبحانه: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[1] بل قيل: إن الصيغة قد غلبت في ذلك، والصبر لا يمكن إلا بمعونة الله تعالى، لأن الدواعي النفسانية تدعوه إلى الجزع، وهي قوية، والدواعي الروحانية تدعوه إلى الصبر، فما لم تحصل إعانة الله تعالى، لم تحصل الغلبة، فإن قيل: لمَّا ظهر له كذبُهم، فلماذا صبر، ولم يبالغ في التفتيش؟ أجيب: إمَّا مَنَعه سبحانه عن التفتيش تشديداً للمحنة، وإمَّا عرف بالقرائن أنه لو بالغ في البحث لأقدموا على إيذائه وقتله، فلمَّا وقع في هذه البلية، رأى أن الأصوب الصبر والسكوت، وتفويض الأمر بالكلية إلى الله عزَّ وجلَّ.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَجَاءَتْ﴾ التعبير بالمجيء، وإيثاره على المرور والإتيان ونحوهما، إيماء كونه عليه السلام في الكرامة والزلفى عند مليك مقتدر ﴿سَيَّارَةٌ﴾ أي

---

(١) سورة الصافات، آية: ١٨٠.

رفقة مسافرون يَسيرون من جهة مدين إلى مصر، فنزلوا قريباً من الجبِّ، وكان في طريق سيرهم المعتاد، وقيل إنه كان في قفرة بعيدة من العمران، فأخطؤوا الطريق فأصابوه ﴿فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ﴾ الذي يرد الماء ويستسقي لهم ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ أي أرسلها في الجب ليملأها، وفي الكلام حذفٌ، أي فأدلى دلوه فتعلَّق بها يوسف فخرج ﴿قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ نادى البشرى بشارةً لنفسه ورفقته، كأنه نادى البشرى وقال تعالَي فهذا أوانك، حيث فاز بنعمة عظيمة، والتنوين في غلام للتفخيم لأنه كان من أحسن الغلمان، ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ أي أخفاه الوارد وأصحابه عن بقية الناس، ليبيعوه بمصر متاعاً كالبضاعة وقوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾ يدلُّ على أن المراد أنهم أخفوه لأجل البضاعة، وذلك إنما يليق بالوارد وأصحابه، لا بأخوة يوسف كما زعمه البعضُ ﴿بِضَاعَةً﴾ أي أخفوه بضاعة أي متاعاً للتجارة، والبضاعة قطعة من المال تعدُّ للتجارة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ لم يخف عليه إسرارهم، وصرَّح غير واحد أن هذا وعيد لأخوة يوسف، على ما صنعوا بأبيهم وأخيهم، وجعلهم عرضة للابتلاء والابتذال، بالبيع والشراء، حين احتاجوا إلى السفر لمصر من أجل الميرة.

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنِۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَشَرَوْهُ﴾ الضمير المرفوع للسيَّارة، بمعنى باعوه ﴿بِثَمَنِۭ بَخْسٍ﴾ أي نقص، وهو مصدر أُريد به اسم المفعول، أي منقوص، وقيل: حرام لأنه ثمن الحر ﴿دَرَٰهِمَ﴾ أي لا دنانير ﴿مَعْدُودَةٍ﴾ أي قليلة، وكنَّى بالعدِّ عن القلة، قيل كانت عشرين درهماً ﴿وَكَانُواْ﴾ أي البائعون ﴿فِيهِ﴾ في بيع يوسف ﴿مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ من الراغبين عنه لأنهم التقطوه، والملتقط للشيء متهاون به لا يبالي فيه، يُقال: زَهِد في الشيء زهداً وزهادَةً تركه، وأعرض عنه.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ ﴾ فهذا الشراء غير الشراء السابق الذي كان بثمن بخس، والذي اشتراه العزيز كان على خزائن مصر واسمه «قطفير» ﴿ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ ﴾ راعيل وهو المروي عن مجاهد، وقال السدي: زليخا وقيل اسمها راعيل ولقبها زليخا ﴿ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ ﴾ أي اجعلي محل إقامته كريماً مرضياً، وأحسني تعهده. يُقال: ثوى بالمكان أقام فيه، والمثوى: المنزلُ، وهذا كناية عن إكرامه على أبلغ وجه وأتمه ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ ﴾ أي لعله يكفينا بعض المهمات في ضياعنا وأموالنا ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ أي نتبناه، وكان العزيز عقيماً، وتفرَّس في يوسف مخايل الرشد والنجابة، فأراد أن يقيمه مقام الولد، قال ابن مسعود: «أفرس الناس ثلاثة: العزيز حين تفرَّس في يوسف، فقال لامرأته أكرمي مثواه، والمرأة التي أتت موسى فقالت لأبيها «يا أبت استأجره» وأبو بكر حين استخلف عمر رضي الله عنهما» ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك التمكين البديع ﴿ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي جعلنا له فيها مكاناً، يقال: مكَّنه فيه أي أثبته فيه، ومكَّن له فيه أي جعل له مكاناً فيه، ويستعمل كل منهما في مقام الآخر، والمراد بالمكان هنا المكانة، والمعنى: كما جعلنا له فيها مثوى كريماً، جعلنا له مكانةً عاليةً في قلب العزيز، حتى أَمَر امرأته بالإحسان إليه، أو جعلنا له مكانة رفيعة في أرض مصر ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ أي نوفقه لتعبير بعض المنامات ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ ﴾ لا يردُّه شيء، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن الأمر كلَّه لله، وبيده لطائف صنعه، وخفايا لطفه.

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ أي منتهى اشتداد جسمه وقوته، وهو سن الشباب ومبدأ بلوغ الحلم ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا ﴾ حكمة وهو العلم المؤيد بالعلم ﴿ وَعِلْمًاۚ ﴾ أي علم تأويل الأحاديث، وفسر بعضهم الحكمة بالنبوة، والعلم بالتفقه في الدين، وقيل: أراد بالحكمة الحكم بين الناس، وبالعلم العلم بوجوه المصالح، فإن الناس كانوا إذا تحاكموا إلى العزيز، أمره بأن يحكم بينهم، لما رأى من عقله وإصابته في الرأي ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ مثل ذلك الجزاء العجيب ﴿ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فإنه تعالى إنما آتاه ما آتاه لكونه محسنا في أعماله، متقناً في عنفوان أمره، قال الحسن: من أحسنَ عبادة الله سبحانه في شبابه، آتاه الله تعالى الحكمة في اكتهاله.

﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ .

﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا ﴾ رجوع إلى شرح ما جرى عليه في منزل العزيز، بعدما أمر امراته بإكرام مثواه، وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا ﴾ إلى هنا اعتراض جيء به أنموذجاً للقصة، ليعلم السامع من أول الأمر، أن مالقيه من الفتن والمحن، له غاية جميلة، وأنه محسن في جميع أعماله، لم يصدر منه في حالتي السراء والضراء ما يخلُّ بنزاهته، والمراودةُ: المطالبةُ برفق، من رَادَ يَرُودُ: إذا جاء وذهب لطلب شيء، ومنه الرائد لطلب الماء والكلأ، وهي مفاعلة من واحد، نحو: مطالبة الدائن، ومماطلة المديون، ومداواة الطبيب، ونظائرها مما يكون من أحد الجانبين، الفعل، ومن الآخر سببه، فإن هذه الأفعال وقد كانت صادرة من أحد الجانبين، لما كانت أسبابها صادرة عن الجانب الآخر، جعلت كأنها صادرة عنهما، لأن سبب الشيء يقوم مقامه، فكان جماله عليه السلام سبباً

لمراودتها له، ثم كونها في بيتها مما يدعو إلى ذلك، قيل لواحد: ما حَمَلك على ما أنت مما لا خير فيه؟ قال: قُربُ الوِساد، وطول السَّواد ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي طلبت من يوسف أن يواقعها، والعدولُ عن التصريح باسمها، للمحافظة على السرِّ، وللاستهجان بذكرها، وإضافة البيت إليها ﴿التي هو في بيتها﴾ لما أن العرب تضيف البيوت إلى النساء، باعتبار أنهن القائمات بمصالحه، أو الملازمات له ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ قيل: كانت سبعة، ولذلك جاء الفعلُ بصيغة التفعيل، وقيل: للمبالغة في الإيثاق ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي أقبِلْ وبادِرْ، فقد تهيأتُ لك، وقال الكسائي: تعال، ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي أعوذ بالله معاذاً، مما تدعيني إليه، وهذا اجتناب منه على أتم الوجوه، وإشارة إلى أنه منكر، يجب أن يُعاذ بالله تعالى للخلاص منه، لأنه قد شاهد بما أراه الله تعالى من البرهان النير، ما هو عليه في حدِّ ذاته من غاية القبح، ونهاية السوء ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ أي هو ربي، أي سيدي العزيز أحسن تعهدي، حيث أمرك بإكرامي، فكيف يمكن أن أسيء إليه بالخيانة في حَرَمه؟ وفيه إرشاد لها إلى رعاية حق العزيز، بألطف وجه. وإلى هذا المعنى ذهب مجاهد، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ تعليل للامتناع والمراد بالظالمين كل من ظلم، وقيل: الزناة، وقيل: الخائنون.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ بمخالطته، أي قصدتها عزماً جازماً، بعدما باشرت مباديها من المراودة، وتغليق الأبواب، ودعوته إلى نفسها بطريق القسر، ولعلها قصدت أفعالاً أخر، من بسط يدها إليه، وقصد المعانقة، وغير ذلك مما يضطره إلى الهرب نحو الباب ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ بمخالطتها، أي مال إليها بمقتضى الطبيعة البشرية، وشهوة الشباب، ميلاً جبليّاً لا يكاد يدخل

تحت التكليف، لا أنه قصدها قصداً اختيارياً، لأنه بريء من ارتكاب الفاحشة، وكذلك بريءٌ من الهمِّ المحرَّم، وإنما عبر عنه بالهمِّ، لمجرد وقوعه في صحبة همِّها، بالذكر بطريق المشاكلة، لا لشبهه به كما قيل، وقد أشير إلى تباينهما حيث لم يقترنا بلفظ واحد من التعبير، بأن قيل: ولقد همَّا بالمخالطة، أو همَّ كل واحد منهما بالآخر، وصُدِّر الأول بما يقرِّر وجوده من التوكيد القسمي ﴿وَلَقَد﴾ وعقِّب الثاني بما يعفو أثره، من قوله عز وجل ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ أي الحجة الباهرة الدالة على قبح الزنا، وسوء سبيله، والمراد برؤيته لها كمال إيقانه بها، وقيل، التقدير: لولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها، لكنه وجد البرهان فانتفى الهمُّ[1]، وما ذكره البعض من أنه جلس منها مجلس الرجل من المرأة، فلما رأى البرهان من ربه، زالت الشهوة عنه، أو أنه حلَّ الهميان يريد فعل الفاحشة، ورووا روايات شتى، كلُّها من الأباطيل، تردُّها العقول، ويل لمن لاكها أو سمعها وصدَّقها.

وقال الشيخ أبو منصور الماتريدي: لو كان همُّه كهمِّها لما مدحه الله، بأنه من عباده المخلصين، ولأنه لو وجد منه أدنى ميل لذُكرت توبته، كما كان لآدم، ونوح، وذي النون، وداود عليهم السلام، فعلم بالقطع أنه ثبت في هذا المقام، وجاهد مجاهدة أولي العزم، ذاكراً دلائل التحريم، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك التبصير، ومثل ذلك التثبت ثبتناه ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ

---

(١) إلى هذا القول ذهب أبو حيان في تفسيره البحر المحيط ٥/ ٢٩٥ حيث قال ما نصُّه: نسب بعضهم ليوسف ما لا يجوز نسبته لأحد الفُسَّاق، والذي أختاره أن يوسف عليه السلام لم يقع منه همٌّ البتَّة، بل هو منفي لوجود رؤية البرهان كما تقول: «قارفتَ الذنب لولا أن عصمك الله، وكقول العرب: أنت ظالم إن فعلت هذا، وتقديره: إن فعلت هذا فأنت ظالم، كذلك هنا التقدير: لولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها، ولكنه وجد البرهان فانتفى الهمُّ» ا هـ أقول: وهذا هو الحق، وقد أشبعنا البحث تحقيقاً في كتابنا «صفوة التفاسير» وفي كتابنا «قبس من نور القرآن».

﴿ٱلسُّوٓءَ﴾ خيانة السيد، ومقدمات الزنا، من المسِّ بشهوة، والقُبلة ﴿وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ﴾ أي الزنا، لأنه مفرط في القبح، وفيه حجةٌ قاطعة على أنه عليه السلام لم يقع منه همٌّ بالمعصية، ولا توجَّه إليه قطُّ، وإلا لقيل: لنصرفه عن السوء والفحشاء، وإنما توجَّه إليه ذلك من خارج، فصرفه الله تعالى عنه، بما فيه من موجبات العفة والعصمة ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ بفتح اللَّام أي الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته أي اجتباه، وقرأ ابن كثير وأبو عمر بالكسر، أي الذين أخلصوا دينهم لله تعالى، فهو منتظم في سلكهم، بقضية الجملة الاسمية، فانحسم مادة احتمال صدور الهمِّ بالسوء منه بالكلية.

﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٥﴾.

﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾ متصل بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦ﴾ وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ﴾ اعتراض جيء به تقريراً لنزاهته عليه السلام، والمعنى ولقد همَّت به وأبى هو، واستبقا الباب، أي تسابقا إلى الباب الخارجي الذي هو المخرج من الدار، ولذلك وُحِّد بعد الجمع، في قوله: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ لأن إغلاق الأبواب للاحتياط لا يتم إلا بإغلاق الجميع، أمَّا هربه منها فلا يكون إلا إلى باب واحد، فرَّ منها ليخرج، وأسرعت هي وراءه لتمنعه عن الخروج، فتعلقت بقميصه من خلفه ﴿وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ﴾ اجتذبته من ورائه فانقدَّ قميصُه، والقدُّ: الشقُّ طولاً أي انشق طولاً نصفين ﴿وَأَلۡفَيَا﴾ وجدا ﴿سَيِّدَهَا﴾ أي زوجها وكانت المرأة تقول لزوجها: سيدي، ولذا لم يقل: سيِّدهما ﴿لَدَا ٱلۡبَابِۚ﴾ وحين رأته المرأة خافت التهمة، فسبقت بالقول ﴿قَالَتۡ﴾ لزوجها ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا﴾ من الزنا ونحوه، أي ليس جزاؤه ﴿إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾

إيهاماً بأنها فرَّتْ منه، تبرئةً لساحتها عند زوجها، وإغراءه بيوسف انتقاماً منه، والمراد بـ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قيل: الضرب بالسوط، وعن ابن عباس القيدُ، وإنما بدأت بالسجن لأن المحبَّ لا يشتهي إيلام المحبوب، إنما أرادت أن يُسجن عندها يوماً أو أقل، لا الحبس الدائم، فإنه لا يُعبَّر بهذه العبارة، بل يقال: يجب أن يُجعل من المسجونين، كما قال فرعون لموسى: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾[1] وقيل: إنها جمعت فيها غرضيها: وهما تبرئة ساحتها، واستنزال يوسف عن رأيه، في استعصائه عليها بإلقاء الرعب في قلبه.

﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ يوسف ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ﴾ أي طالبتني بالجماع لا أني أردت بها سوءاً كما زعمتْ، وإنما قاله عليه السلام لتنزيه نفسه عما أُسند إليه من الخيانة، ودفع ما عرضته من السجن أو العذاب، ولولا ذلك لكتم عليها ولم يفضحها، وفي التعبير عنها بضمير الغَيْبة دون الخطاب، مراعاة لحسن الأدب، مع الإيماء إلى الإعراض عنها ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قيل: هو ابن عمها، وقيل: كان ابن خالها، وإنما ألقى الله سبحانه الشهادة، إلى من هو من أهلها، ليكون أدلَّ على نزاهته وأنفى للتهمة عنه، وكان طفلاً في المهد، أنطقه الله تعالى ببراءته عليه السلام، وقد ورد عنه ﷺ: «تكلم أربعةٌ في المهد وهم صغار: ابنُ ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف، وصاحبُ جريج، وعيسى ابن مريم»[2] ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ أي من قدَّام ﴿فَصَدَقَتْ﴾ في قولها أنه يريد بها

---

(١) سورة الشعراء، آية: ٢٩.

(٢) الحديث أخرجه أحمد في المسند وابن حبان، والحاكم من حديث ابن عباس مرفوعاً، وانظر تفسير ابن كثير ٢/ ٢٤٧.

الفاحشة، وهي ممانعة تدافع عن نفسها ﴿وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ لأنه يدلُّ على أنها شقت قميصه من قُدَّامه، بالدفع عن نفسها.

﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ لأنه يدلُّ على أنها تبعته فاجتذبت ثوبه فشقته من خلف، وشهادة الطفل الذي أنطقه الله كافية في بيان صدقه، لأنها كانت بتأييد من الله عزَّ وجل، حيث سخَّر له هذا الطفل وهو في المهد، ليشهد بعفته وصدقه بالحجة الدامغة، وهناك دلائل أخرى كثيرة تشير على صدقه، منها أنه كان مملوكاً، والمملوك لا يتجاسر أن يتسلط على سيدته، ومنها أنهم شاهدوا يوسف يعْدُو هارباً، ومنها أنهم رأوا المرأة قد تزينت ولبست أجمل حُليِّها، ومنها أنهم عرفوا يوسف في المدة الطويلة، فلم يروا عليه حالةً تناسب إقدامه على مثل هذه الجريمة، وغير ذلك، فلما حصلت هذه الأمارات، الدالة على أن مبدأ هذه الفتنة من المرأة، استحى الزوج وسكت، وعلم صدق يوسف، وكان بليد الحسِّ، عديم الغيرة.

﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿فَلَمَّا رَءَا﴾ أي السيد عزيز مصر ﴿قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ أي ثوبه قد شُقَّ من خلف، تنبَّه وعلم حقيقة الحال ﴿قَالَ إِنَّهُۥ﴾ أي هذا الأمر وهو المراودة وشق الثوب من وراء ﴿مِن كَيْدِكُنَّ﴾ أي من احتيالكنَّ أيتها النساء ومكركنَّ، وهذا تكذيب لها وتصديق له عليه السلام، وتعميم الخطاب للتنبيه على أن الكيد خُلُقٌ لهنَّ عريق ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ فإنه ألطفُ، وأعلق بالقلب، وأشدُّ تأثيراً في النفس، قال بعض الصالحين: إني أخاف من النساء، ما لا أخاف من الشيطان، فإنه تعالى يقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ

الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾ وقال عن النساء ﴿إِنَّ كَيدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ ولأن الشيطان يوسوس سرقةً وخفية، وهنَّ يواجهن به الرجال علناً.

﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ يُوسُفُ ﴾ أي يا يوسف، حُذف حرف النداء لقربه وكمال تفطنه للحديث ﴿ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ۚ ﴾ أي هذا الأمر، واكتمه ولا تحدِّثْ به أحداً، فقد ظهر صدقك، ثم التفت إلى المرأة فقال لها: ﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ ﴾ الذي صدر منك، وثبت عليك ﴿ إِنَّكِ كُنتِ ﴾ بسبب ذلك ﴿ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ من جملة القوم المتعمِّدين للذنب، يقال خطىء إذا أذنب عمداً فهو خاطىء، وأخطأ إذا أراد الصواب فصار إلى غيره، والتذكير لتغليب الذكور على الإناث، والظاهر أن قائل ذلك هو «العزيز» قيل كان رجلاً حليماً، والأصوب أنه كان قليل الغيرة، فلذلك أراد طيَّ بساط الخيانة، فاقتصر على هذا القول، لإخفاء الجريمة، وطمس معالمها.

﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ ﴾ أي جماعة من النساء، روي عن مقاتل أنهن خَمس: امرأة الخباز، وامرأة الساقي، وامرأة البواب، وامرأة السجَّان، وامرأة صاحب الدواب ﴿ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ أي أشعن الأمرَ وأشهرنه في مصر، إغاظةً لها، وتشهيراً بعملها القبيح، حيث عشقت خادماً، وعبداً مملوكاً لها ﴿ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ ﴾ أريد به «قطفير» لأنه كان على خزائن الملك، وإضافتهن لها إليه بهذا العنوان، دون أن يصرِّحن باسمها أو اسمه، ليظهر كونها من ذوات الجاه والسلطان، فيكون عوناً على إشاعة الخبر، بحكم أن النفوس

إلى سماع أخبار ذوي الأخطار أميل ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ أي تطلب مواقعته إياها، لتنال شهوتها منه، وإيثارهن صيغة المضارع، ﴿تُراوِدُ﴾ للدلالة على دوام المراودة، وتعبيرهن بفتاها ـ يعني عبدها ـ للهوان، والإشباع في اللوم، فإن من لا زوج لها من النساء، قبيح منها مراودة الخدم، فكيف بمن هي سيدة في القصر، وزوجة لعزيز مصر، فمراودتها لغيره لا سيما لعبدها، وتماديها في ذلك، غاية الغيِّ ونهاية الضلال، والفتى من الناس الطريُّ من الشُبَّان، ويطلق على المملوك والخادم، وأطلق على يوسف هنا، لأنه كان يخدمها، فهو مملوكها، وكلُّ ذلك للمبالغة في اللوم ﴿قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ﴾ أي شقَّ حبُّه شَغَاف قلبها وهو حجابُه فالمعنى: وصل حبُّه إلى سويداء قلبها فكاد يحترق ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا﴾ أي لنعلمها علماً، فالرؤية قلبية، واستعمالها بمعنى العلم حقيقة، كاستعمالها بمعنى الإحساس بالبصر ﴿فِي ضَلَٰلٖ﴾ عن الرشد، وبعدٍ عن الصواب ﴿مُّبِينٖ﴾ أي واضح لا يخفى كونه ضلالاً على أحد.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ﴿٣١﴾﴾.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ﴾ باغتيابهنَّ وسوء مقالتهنَّ، وتسميته مكراً لكونه خفيةً منها، كمكر الماكر، ﴿أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ﴾ تدعوهن إلى زيارتها في قصرها ﴿وَأَعۡتَدَتۡ﴾ أي هيأت ﴿لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا﴾ ما يتكئن عليه من الوسائد والنمارق، ورتبت لهن مجلس طعام، وشراب، ومن طريقة القوم، أنهم يتكئون للطعام والشراب والحديث، كعادة المترفين ﴿وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا﴾ لتستعمله في قطع ما يعهد قطعه من اللحوم والفواكه ونحوها، وهن متكئات، وغرضها من ذلك ما سيقع من تقطيع أيديهن ﴿وَقَالَتِ﴾ ليوسف وهنَّ مشغولات بمعالجة السكاكين، وإعمالها فيما بأيديهن من الفواكه،

وكانت قد خبأت يوسف في مكان آخر ﴿ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ﴾ أي ابرز لهن، والظاهر أنها لم تأمره بالخروج، إلا لمجرد أن يرينه فيحصل مرامها، وقيل أمرته بالخروج للخدمة ﴿فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ﴾ أي فخرج عليهن فرأينه، ﴿أَكۡبَرۡنَهُۥ﴾ أي أعظمنه، ودهشن عند رؤيته لأنهن رأين الجمال العظيم، بتلك الهيئة الملكية بنور النبوة، فتعجبن ووقعت المهابة في قلوبهن، فنسين أنفسهن ﴿وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ﴾ بما في أيديهن من السكاكين، وفي التعبير عن الجرح بالقطع، ما لا يخفى من الدلالة على كثرة جراحهنَّ، ومع ذلك لم يشعرن بذلك ﴿وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ أي تنزيهاً لله سبحانه، عن صفات العجز، وتعجباً من قدرته جل وعلا على مثل ذلك الصنع البديعُ، ﴿حَاشَ﴾ أصله حاشا فحذف ألفه الأخير تخفيفاً، وهو اسم بمعنى التنزيه ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ لأن هذا الجمال والكمال غير معهود للبشر، نفين عنه البشرية لما شاهدن من جماله ﴿إِنۡ هَٰذَآ﴾ أي ما هذا ﴿إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ﴾ فإن الجمع بين الجمال الرائق، والكمال الفائق، والعصمة البالغة، من خواص الملائكة، وغرضهن من هذا وصفه بأنه في أقصى مراتب الحسن والجمال.

﴿قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ٣٢﴾.

﴿قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ﴾ الخطاب للنسوة والإشارة إلى يوسف، فوضع «ذلك» موضع «هذا» رفعاً لمنزلة المشار إليه، والمعنى: إن كان الأمر كما قلتُنَّ، فذلكنَّ المَلَك الكريم الخارج في الحسن عن البشرية هو ﴿ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ﴾ أي عيّرتنَّني في الافتتان فيه، فهو ذلكن العبد الكنعاني، فالآن قد علمتن من هو؟ وما قولكن فينا؟ ولما أقامت عليهن الحجة وأوضحتْ لديهنَّ عذرها، كشفت لهن بقية سرِّها فقالت: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ حسبما قلتنَّ وسمعتنَّ ﴿فَٱسۡتَعۡصَمَ﴾ امتنع طالباً للعصمة، وهو يدل على الامتناع البليغ، وفيه برهان نيِّر على أنه لم يصدر عنه شيء مخل باعتصامه من الهمِّ

وغيره، والاستعصام بناءُ مبالغة، يدل على الامتناع البليغ، والتحفظ الشديد، كأنه في عصمة، ثم إنها بعد أن اعترفت لهن بما سمعته، وأظهرت من إعراضه عنها واستعصامه، ذكرت أنها مستمرة على ما كانت عليه فقالت ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ أي آمر به من مطاوعتي ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ آثرت بناء المفعول جرياً على رسم الملوك، وعبَّرت عن مراودتها بالأمر إظهاراً لجريان حكومتها عليه ﴿وَلَيَكُونًا﴾ بالمخففة ﴿مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ أي الأذلاء في السجن، وإنما بالغت في ذلك، بمحضر من تلك النسوة، لمزيد غيظها لإصراره على عدم بلِّ غليلها، ولتعلم يوسف أنها ليست في أمرها على خيفة ولا خفية من أحد، لينصحن له ويرشدنه إلى موافقتها.

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ مناجياً لربه عز وجل ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ﴾ الذي أوعَدَتْني بالإلقاء فيه ﴿أَحَبُّ إِلَىَّ﴾ أي آثر وأفضل عندي ﴿مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ من مواتاتها التي تؤدي إلى الشقاء، والعذاب الأليم، وهذا الكلام منه مبنيٌّ على ما مرَّ من انكشاف الحقائق لديه، وصيغة التفضيل ليست على بابها، إذ ليس له شائبة محبة لما دعته إليه، وإنما هو والسجنُ شرَّان، أهونُهما السجن، وإنما أسند الدعوة إليهنَّ جميعاً، لأن النسوة رغَّبنه في مطاوعتها، وخوَّفنه من مخالفتها، ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ﴾ أي وإن لم تدفع ﴿عَنِّى كَيْدَهُنَّ﴾ في تحبيب ذلك إليَّ وتحسينه لديَّ، بأن تثبتني على العصمة والعفة ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي أملْ إلى إجابتهن، بحكم الغريزة والقوة الشهوية، وهذا فَزَعٌ منه إلى ألطاف الله سبحانه، جرياً على سنن الأنبياء والصالحين، في قصر نيل الخيرات، والنجاة من الشرور، على الله تعالى ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ الذين لا يعملون بما يعلمون، فالجهل بمعنى السفاهة ضد الحكمة، لا بمعنى عدم العلم.

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾ .

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ دعاءه على أبلغ وجه، وفي إسناد الاستجابة إلى الرب جلَّ وعلا، ما لا يخفى من إظهار اللطف به ﴿ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ﴾ حسب دعائه، بأن ثبَّته على العصمة والعفَّة ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ لدعاء المتضرعين إليه ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بأحوالهم وما يصلحهم، وما انطوت عليه نياتهم.

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم ﴾ أي ظهر للعزيز وأصحابه ﴿ مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ ﴾ وهي الشواهد الدالة على براءة يوسف من التهمة ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُۥ ﴾ لإرخاء الستر على القيل والقال، وزوجته هي التي أشارت عليه بذلك، وكان مطواعاً لها، زمامه في يدها، تقوده حيث شاءت، روي أنها لما يئست من يوسف عليه السلام، قالت للعزيز: إنَّ هذا الغلام قد فضحني في الناس، يخبرهم بأني راودته عن نفسه، وأنا لا أقدر على إظهار عذري، فأرى أن تحبسه لينقطع عن الناس ذكر هذا الحديث، فحبسه إرضاء لها ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ أي إلى حين انقطاع كلام الناس، خدعت زوجها وحملته على سجنه، حتى تبصر ما يكون منه، أو يحسب الناسُ أنه المجرم، فلبث في السجن سبع سنين.

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ﴾ أي اتفق أنه أُدخل حينئذ ﴿ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ ﴾ من فتيان الملك، أحدهما ساقيه، والآخر خبازه، روي أن جماعةً من أهل مصر،

ضمنوا لهما مالاً ليسمَّا الملك، في طعامه وشرابه، فأجاباهم إلى ذلك، ثم إنَّ الساقي نكل عن ذلك، ومضى عليه الخباز فسمَّ الخبز، فلما حضر الطعام قال الساقي لا تأكل فإن الخبز مسموم، وقال الخباز لا تشرب فإن الشراب مسموم، فقال الملك للساقي: اشربه فشربه فلم يضره، وقال للخباز كله فأبى، فجربه بدابة فهلكت، فأمر بحبسهما، فاتفق أن أدخلا مع يوسف السجن، والظاهر أن دخولهما مصاحبين له، وأنهم سُجنوا في ساعة واحدة ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ﴾ وهو السَّاقي ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ﴾ أي رأيتني في المنام ﴿أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ أي عنباً، سماه بما يؤول إليه، لأن الخمر لا تعصر ﴿وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ﴾ وهو الخباز ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ﴾ أي تنهش منه ﴿نَبِّئۡنَا﴾ أخبرنا ﴿بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ﴾ أي بتأويل ما ذكرنا من الرؤيا ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ﴾ أي إنا نعتقدك ﴿مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ من الذين يجيدون تعبير الرؤيا، لما سمعاه يذكر للناس ما يدل على علمه، وفضله أو من المحسنين لأهل السجن، فقد كان إذا مرض منهم رجل قام عليه، وإذا ضاق مكانه أوسع له، وقال لأهل السجن: اصبروا تؤجروا، فقالوا له بارك الله عليك، ما أحسن وجهك وما أحسن خلقك!؟.

﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧﴾.

﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ﴾ في مقامكما هذا حسب عادتكما ﴿إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾ أي لا يأتيكما طعام إلاَّ بيَّنتُ لكما ماهيته وكيفيته وسائر أحواله ﴿قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ﴾ أي قبل أن يصل إليكما، وكان يقول لهما: اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيتَ، فيجدانه كذلك، وإنما لم يكتف بتأويل رؤياهما مع أن فيه دلالة على فضله، لأنه أراد أن يخرج عما في عهدته من دعوة الخلق إلى الحق، فمهَّد قبل الخوض في ذلك مقدمة،

تزيدهما علماً بعظم شأنه، وثقة بأمره، توسلاً بذلك إلى تحقيق ما يتوخاه، وأورد عليهما ما دلَّ على كونه رسولاً من عند الله، واجتهد في أن يدخلهما في الإسلام، ثم أخبرهما بأن علمه ذلك ليس من قبيل علوم الكهنة والمنجمين، بل هو فضلٌ إلهي يؤتيه من يشاء، ممن يصطفيه للنبوة فقال: ﴿ذَٰلِكُمَا﴾ أي ذلك التأويل والإخبار عن المغيبات ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ بالوحي والإلهام، ثم بين أن نيل الكرامة بسبب اتباعه ملة آبائه وامتناعه عن الشرك فقال: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ وهو استئناف وقع جواباً عن سؤال، فكأنه قيل: لماذا علمك ربك؟ فقيل: لأني تركت ملة الكفرة، والمراد بتركها الامتناع عنها رأساً، لا تركها بعد ملابستها، عبَّر به عن ذلك استجلاباً لهما، لأن يتركا تلك الملَّة التي هم عليها ﴿وَهُم﴾ أهل مصر ﴿بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي على الخصوص دون غيرهم من الكنعانيين الذين هم على ملة إبراهيم.

﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ﴾ يعني أنه إنما حاز هذه الكمالات بسبب أنه اتبع ملة آبائه الكرام، وهي الملة الحنيفة وإنما قال ذلك ترغيباً لصاحبيه بالإيمان والتوحيد، وتمهيداً للدعوة، ولذا أظهر أنه من بيت النبوة، ليقوي رغبتهما في الاستماع إليه ﴿مَا كَانَ﴾ أي ما صحَّ وما استقام ﴿لَنَآ﴾ معاشر الأنبياء ﴿أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ﴾ أيَّ شيءٍ كان، من مَلَك أو جن، أو إنس، فضلاً عن الجماد، ولا أن نشرك به شيئاً من الإشراك ولو قليلاً ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي التوحيد والإيمان ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾ بالوحي والنبوة، وترشيحه لنا لقيادة الأمة وهدايتهم إلى الحق، وذلك مع كونه فضلاً عظيماً علينا بالذات ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ كافة بواسطتنا ﴿وَلَٰكِنَّ

﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ المبعوث إليهم ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي لا يوحِّدون، عبَّر عن عدم التوحيد بعدم الشكر، لأن التوحيد شكرٌ لله عزَّ وجل على تلك النعمة، حيث أعطانا عقولاً ومشاعر نستعملها في دلائل التوحيد، وقد أعطى سائر الناس مثلنا ولكنَّ أكثرهم لا يستعملون تلك القوى فيما خُلقت له.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ﴾ أي يا صاحبيَّ في السجن، ناداهما بعنوان الصحبة التي فيها تصفو المودة، وتخلص النصيحة، ليُقبلا عليه، ويَقبلا مقالته، وقد ضرب لهما مثلاً، يتَّضح به الحق عندهما ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ لا ارتباط بينهم، مختلفة في الكبر والصغر، واللون والشكل لأن الناحت يجعلها على تلك الصورة ﴿خَيْرٌ﴾ لكما ﴿أَمِ ٱللَّهُ﴾ أم عبادة الله المعبود بالحق ﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾ المتفرد بالألوهية ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ الغالب الذي لا يغالبه أحد؟.

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي من دون الله شيئاً ﴿إِلَّآ أَسْمَآءً﴾ فارغة لا حقيقة لها في الخارج، فكانت عبادتهم لتلك الأسماء فقط ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ جعلتموها آلهة ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ بمحض الجهل والضلال ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ أي بتلك التسمية المستتبعة للعبادة ﴿مِن سُلْطَٰنٍ﴾ حجة تدل على صحتها، وكانوا يقولون: إن الله تعالى أمرنا بهذه التسمية، فرد الله عليهم ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ﴾ في أمر العبادة ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ عزَّ وجل إذ هو الواجب بالذات،

الموجد للكل، والمالك لأمره، ثم بين ما حكم به فقال: ﴿أَمَرَ﴾ على ألسنة أنبيائه ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا﴾ بأن لا تعبدوا ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ الذي دلت عليه الحجج، وتقتضي به قضية العقل ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي تخصيصه تعالى بالعبادة ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ الثابت الذي دلت عليه البراهين عقلاً ونقلاً ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ذلك هو الدين القيم لجهلهم بتلك البراهين فيعبدون أسماءً سمَّوْها من عند أنفسهم، معرضين عما يقتضيه العقل والنقل.

وبعد تحقيق الحقِّ، ودعوتهما إليه، شرع في تعبير ما استفسراه فقال:

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ وهو الساقي وإنما لم يعيّنه، ثقةً بدلالة التعبير، وحذراً مما يسوؤه ﴿فَيَسْقِى رَبَّهُۥ﴾ أي سيده ﴿خَمْرًا﴾ كما كان يسقي من قبل ﴿وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ﴾ أي الخباز ﴿فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾ أي فيقتل ويعلَّق على خشبة فتأكل الطير من لحم رأسه، ولمَّا فسَّر لهما الرؤيا جحدا وقالا: ما رأينا شيئاً، قال عليه السلام ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أي قطع الأمر الذي تستفتيان فيه، وفُرغ منه وهو ما يؤول إليه أمركما، والمشهور إن الرؤيا تقع كما تُعبَّر، ولذا قيل: المنام على طائر إذا قُصَّ وقع.

﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَقَالَ﴾ يوسف ﴿لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ﴾ أوثر على صيغة المضارع مبالغة

في الدلالة على تحقيق النجاة، وهو السرُّ في إيثار ما عليه النظم الكريم على أن يقال للذي ظنه ناجياً ﴿مِّنْهُمَا﴾ أي من صاحبيه، وإنما ذكر بوصف النجاة تمهيداً لمناط التوصية بالذكر عند الملك ﴿ٱذْكُرْنِى﴾ بما أنا عليه من الحال والصفة ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ سيدك، وصفْني له بصفتي التي شاهدتها ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي أنسى ذلك الناجي بوسوسته وإلقائه في قلبه أشغالاً يذهل بها عن التذكر، ﴿ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ أي ذكر يوسف عند الملك بتقدير المضاف أي ذكر أخبار ربه ﴿فَلَبِثَ﴾ أي فمكث يوسف بسبب ذلك النسيان ﴿فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ البضعُ: ما بين الثلاث إلى السبع، كما روي عن مجاهد، وقال أبو عبيدة: من الواحد إلى العشرة، والمراد به هنا في أكثر الأقاويل سبع سنين، وهي مدة لبثه كلها فيما صحَّحه البعض، وعن النبي ﷺ: «رحم الله يوسف لولا الكلمة التي قالها ما لبث في السجن ما لبث»[1] والاستعانةُ بالعباد في كشف الشدائد مما لا بأس به، فقد قال سبحانه: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ فلا يُعاتب عليه السلام في ذلك، إلا أنه اللائق بمناصب الأنبياء ترك ذلك، والذي جربته من أول عمري إلى الآن الذي بلغتُه فيه إلى السابع والخمسين أن الإنسان كلَّما عوَّل في أمر من الأمور على غير الله، صار ذلك سبباً إلى البلاء والمحنة، وإذا عوَّل على الله حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه، وإذا أراد الله شيئاً هيأ أسبابه، ولما دنا خروج يوسف عليه السلام رأى ملك مصر رؤيا عجيبة أفزعته، وهي كما قصها القرآن.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

(١) أخرجه ابن حرير الطبري عن ابن عباس مرفوعاً، وذكره ابن كثير ٢/ ٤٩٧ وقال: هذا الحديث ضعيف جداً.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ﴾ وهو الريان وكان كافراً، ففي إطلاق ذلك عليه دلالة على جواز تسمية الكافر ملكاً ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰ ﴾ أي رأيتُ، وإيثار صيغة المضارع لحكاية الحالة الماضية ﴿ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ ﴾ ممتلئات لحماً وشحماً ﴿ يَأْكُلُهُنَّ ﴾ أي أكلهنَّ ﴿ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾ أي سبع بقرات مهزولة جداً، عَجِفَ الفرسُ ضَعُف، فهو أعجف، وجمع الأعجف عجافٌ، روي أنه رأى سبع بقرات سمانٍ، خرجن من نهر يابس، ثم خرج عقبهن سبع بقرات عجاف، فابتلعت السِّمان، ولم يتبيَّن عليها منهنَّ شيءٌ ﴿ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ ﴾ قد انعقد حبها ﴿ وَأُخَرَ ﴾ أي وسبعاً أخر ﴿ يَابِسَٰتٍ ﴾ قد أدركت ولتوت على الخضر حتى غلبتها، ولم يبق من خضرتها شيء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ ﴾ خطاب للأشراف من أهل العلم، يروى أنه جمع السحرة والكهنة والمعبرين فقال يا أيها الملأ ﴿ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ ﴾ هذه أي عبّروها أو بيِّنوا ما تؤول إليه من العاقبة ﴿ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ أي تعلمون علم التعبير، وهي الانتقال من الصورة المشاهدة في المنام إلى ما هي صورة لها من الأمور الآفاقية والأنفسية الواقعة في الخارج، من العبور وهو المجاوزة تقول عبرت النهر إذا قطعته وجاوزته.

﴿ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ قَالُوٓاْ ﴾ أي قال الملأ للملك هي ﴿ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ ﴾ أضغاث جمع ضغث، وهو في الأصل ما جمع من أخلاط النباتات، ثم استعير للرؤيا الكاذبة، واحتلم رأى في منامه رؤيا، والرؤيا، والحُلم عبارةٌ عما يراه النائم مطلقاً، لكن غلبت الرؤيا على ما يراه من الخير والشيء الحسنِ، وغلب الحُلم على خلافه، وفي الحديث الشريف: «الرؤيا من الله، والحُلم من الشيطان»[1] وإنما قالوا أضغاث أحلام بالجمع مع أن الرؤيا ما كانت

(١) الحديث أخرجه البخاري ٢٠٨/١٠ في الطب، ومسلم رقم ٢٢٦٢ في الرؤيا، =

إلا واحدة، للمبالغة في وصف ذلك بالبطلان، كما يقال فلان يركب الخيل ويلبس العمائم، ولا يخفى حسن موقع الأضغاث مع السنابل، فللَّهِ دَرُّ شأن التنزيل، ما أبدع رياض بلاغته!! ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ يريدون بالأحلام المنامات الباطلة خاصة وهذا اعتراف منهم بقصور علمهم، مع أن لها تأويلاً.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا﴾ من صاحبَيْ يوسف في السجن، وهو الساقي ﴿وَٱدَّكَرَ﴾ بالدال وأصله إذْتكر، أُبدلت التاء دالاً وأدغمت، والمعنى: تذكر ما سبق له مع يوسف عليه السلام ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي طائفة من الزمان ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ أي أخبركم به بالتلقي عمن عنده علمه، لا من تلقاء نفسي، ولذلك لم يقل أنا أفتيكم فيها، وعقّبه بقوله: ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ إلى من عنده علمه في السجن، والخطاب للملك والملأ، وكان السجن على ماروي عن ابن عباس في غير مدينة الملك، فأرسل إليه فأتاه فقال:

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ أي يا يوسف ووصفه بالصدّيقية وهي المبالغة في الصدق، حسبما شاهده وجرَّب أحواله، ولكونه بصدد اغتنام آثاره فهو

= وللحديث تتمة، وهي «فإذا رأى أحدكم شيئاً يكرهه، فينفث حين يستيقظ ثلاث مرات، ويتعوَّذ من شرّها، فإنها لا تضرُّه».

من براعة استهلال ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ أي في رؤيا ذلك، أعاد السؤال بعين اللفظ الذي ذكره الملك، ونعم ما فعل، فإن تعبير الرؤيا يختلف باختلاف اللفظ، أي بيِّن لنا تفسير هذه الرؤيا العجيبة ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ﴾ أي أعود إلى الملك ومن عنده فأنبئهم بذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي يعلمون فضلك فيطلبوك ويخلصوك من محنتك، وإنما لم يبت القول بل قال لعلي مجاراة معه عليه السلام على نهج الأدب، واحترازاً عن المجازفة إذ لم يكن على يقين إما لعدم علمهم أو لعدم اعتمادهم.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ يوسف ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ على عاداتكم المستمرة، والدأب العادة المستمرة، وقد أوّل عليه السلام البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب، والعجاف واليابسات بسنين مجدبة، فأخبرهم بأنهم يواظبون على الزراعة سبع سنين ويبالغون فيها إذ بذلك يتحقق الخصب، فالجملة خبرٌ لفظاً أمرٌ معنى، ودلهم في تضاعيف ذلك على أمر نافع لهم فقال: ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ﴾ في كل سنة ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ كيلا يأكله السوس، فإن إبقاء الحبة في سنبلها يوجب بقاءها على الصلاح ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أي اتركوا ذلك في السنبل، إلاَّ ما لا غنى عنه، من القليل الذي تأكلونه في تلك السنين، وفيه إرشاد لهم إلى التقليل في الأكل، وبعد إتمام ما أمرهم به، شرع في بيان بقية التأويل التي يظهر منها حكمة الأمر المذكور فقال:

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي من بعد السنين السبع المذكورات ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ الشدادُ: الصِّعابُ التي تشدُّ على الناس، أي صعاب على الناس ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ من الحبوب المتروكة في سنابلها، وفيه تنبيه على أن أمره بذلك كان لوقت الضرورة، وفيه تلويح بأنه تأويل لأكلِ العجافِ السِّمانَ ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ تحرزون لبذور الزراعة من الحصن وهو الحرز والملجأ.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي من بعد السنين الموصوفة بما ذكر من الشدة وأكل الغلال المدخرة ﴿عَامٌ﴾ لم يعبر عنه بالسنة تحاشياً عن المدلول الأصلي لها من عام القحط، وتنبيهاً من أول الأمر على اختلاف الحال بينه وبين السوابق والعامُ كالسَّنة لكن كثيراً ما يستعمل فيما فيه الرخاء والخصب، والسَّنةُ فيما فيه الشدَّةُ والجدبُ ﴿فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ من الغيث أي يمطرون، غاث الله البلاد غيثاً أنزل بها المطر أو من الغوث أغاثَهم الله: كشفَ شدتهم، والأول قاله ابن عباس ومجاهد والجمهور ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ أي ما من شأنه أن يعصر من العنب، والقصب، والزيتون، ونحوها لكثرتها، وقيل: معنى ﴿يَعْصِرُونَ﴾ يحلبون الضروع، وأحكام هذا العام المبارك غير مستنبطة من رؤيا الملك، وإنما تلقاها من جهة الوحي فبشرهم بها بعدما أول الرؤيا، وأمرهم بالتدبير اللائق، إبانة لعلو كعبه.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾ بعدما جاء السفير بالتعبير، وسمع منه ما سمع واستحسنه، وعرف علمه وفضله ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾ حتى أبصره ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ

﴿ٱلرَّسُولُ﴾ وقال له إن الملك يريد أن تخرج إليه، فأبى أن يخرج حتى تظهر براءته، ويُعلم أنه سُجن ظلماً ﴿قَالَ﴾ يوسف للرسول ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي سيدك وهو الملك ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أي فاسأله أن يبحث عن شأنهن وحالهن، وإنما لم يقل: فاسأله أن يفتش عن ذلك، حثاً للملك على الجدِّ في التفتيش، لتتبين عفته وبراءته، فإن السؤال عن الشيء مما يهيج الإنسان للبحث، لأنه يأنف من الجهل، وإنما لم يتعرض لامرأة العزيز، تأدباً وتكرماً، وأما النسوة فقد كان يطمع بشهادتهن عليها، ولذلك اقتصر على وصفهن بتقطيع الأيدي، ولم يصرح بمراودتهن له، وقولهن «أطع مولاتك» واكتفى بالإيماء إلى ذلك بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ أراد بهذا أنَّ كيدهنَّ عظيم، لا يعلمه إلا الله، أو استشهد بعلم الله تعالى على أنهن كدنه، الاجتهاد في نفي التهم واجب، قال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفنَّ مواقف التهم» فلعله خشي أن يخرج غير متَّضحٍ براءة ساحته ممَّا سُجن فيه، حتى لا يتسلَّق الحاسدون إلى تقبيح أمره ويجعلونه سُلَّماً إلى حط قدره، طلب السؤال عن حاله، ولمَّا رجع الرسول إلى الملك بهذه الرسالة جمع النسوة وامرأة العزيز معهن.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ لهن ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ ما شأنكنَّ؟ والخطبُ أمر يحق أن يخاطب فيه صاحبه، وأصله الأمر العظيم الذي يحق لعظمته أن يكثر فيه التخاطب ﴿إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ﴾ وخادعتنه ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي هل وجدتن من يوسف ميلاً إليكن شيئاً من سوء وريبة؟ ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ تنزيه له تعالى وتعجيب من قدرته على خلق عفيف مثله ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ من ذنب بالغن في نفي جنس السوء عنه بالتنكير وزيادة من ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾

أي ثبت واستقر الحقُّ وظهر وتبين بعد خفاء ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ لا أنه راودني عن نفسي، قيل: أقبلت النسوة عليها يقررنها تأكيداً لنزاهته وكذا قولها ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي في قوله: ﴿هي راودتني عن نفسي﴾ فتأمل أيها المنصف!! هل ترى فوق هذه المرتبة نزاهة، حيث لم تتمالك الخصماء من الشهادة بها!! «والفضلُ ما شهدت به الأعداء» ثم رجع الرسول إلى يوسف وأخبره بكلام النسوة وإقرار امرأة العزيز فقال يوسف.

﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ذلك التثبيت المؤدي إلى ظهور حقيقة الحال ﴿لِيَعْلَمَ﴾ أي العزيز ﴿أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ﴾ في حرمته كما زعمته ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ بظهر الغيب أي لم أخنه وهو غائب عني، فالمقصود كمال نزاهته عليه السلام عن الخيانة واجتنابه عنها عند تعاضد أسبابها ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي وليعلم أن الله تعالى ﴿لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ أي لا ينفذه، ولا يسدده بل يبطله، فهدايةُ الكيد مجازٌ عن تنفيذه.

ثم إنه عليه السلام أراد أن يتواضع لله تعالى، ويهضم نفسه لئلا يكون مزكياً لها، وليبين أن هذا بتوفيق الله وعصمته فقال:

﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ﴾ أي لا أنزِّهها عن السوء من حيث هي هي، ولا أسند هذه الفضيلة إليها، من غير توفيق من الله تعالى، بل إنه بتوفيقه جل شأنه، قاله عليه السلام إبرازاً لسره المكنون في شأن أفعال العباد ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ﴾ البشرية التي من جملتها نفسي ﴿لَأَمَّارَةٌۢ﴾ لكثيرة الأمر ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي بجنسه، مائلة إلى الشهوات مستعملة للقوى والآلات في تحصيلها في

كل الأوقات والنفس الواحدة الإنسانية شيء واحد، ولها صفات كثيرة، فإذا مالت إلى العالم الإلهي، كانت نفساً مطمئنة، وإذا مالت إلى الشهوة والغضب، كانت أمَّارة بالسوء ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ الجمهور على أن الاستثناء منقطع، أي لكن رحمة ربي هي التي تصرف عني السوء، ولعل الأولى أن يكون الاستثناء من النفس، أي كلُّ نفسٍ أمارةٌ بالسوء، إلاَّ التي رحمها الله عزَّ وجل، وعصمها عن ذلك كنفسي ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ عظيم المغفرة ومبالغ في الرحمة فيعصمها من الجريان على موجب ذلك، وكون تأنّيه في الخروج من السجن، لعدم رضاه بملاقاة الملك، وأمره غامض، ففعل ما فعل حتى يتبين نزاهته عليه السلام، وأنه سُجن بظلم، ليتلقاه الملك بما يليق به، من الإعظام والإجلال، وقد وقع.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ﴾ أي أجعله خالصاً لنفسي ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ في الكلام إيجاز، أي فأتوا به، فحذف للإيذان بسرعة الإتيان به، فكأنه لم يكن بين الأمر بإحضاره، وبين الخطاب معه زمان أصلاً، والضمير في ﴿كَلَّمَهُۥ﴾ ليوسف عليه السلام أي فلما كلَّم المِلكُ يوسفَ، وشاهد منه ما شاهد، من الدهاء وحسن منطقه، بما صدَّق الخبر، وعظيم حسن أدبه، وصبره وثباته، فلذلك رغب أن يتخذه خالصاً لنفسه ﴿قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾ أي ذو مكانة، ومنزلة رفيعة ﴿أَمِينٌ﴾ مؤتمن على كل شيء في المملكة.

﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ أي أرض مصر، والمعنى: ولِّني على أمرها، من الإيراد والصرف ﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ أي مبالغ في المحافظة على

منفعة البلاد ﴿عَلِيمٌ﴾ بوجوه التصرف فيها، وفيه دليل على جواز طلب الولاية، إذا كان الطالب ممن يقدر على إقامة العدل، وإجراء أحكام الشريعة، وإن كان من يد الكافر، والجائر، وفيه أيضاً دليل على جواز مدح الإنسان نفسه بالحق، إذا جُهل أمره، وما في الصحيحين عن عبد الله ابن سمرة قال: قال ﷺ: «يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة، فإنك إن أُوتيتها عن مسألة وُكِلْتَ إليها، وإن أعطيتها من غير مسألة أُعنتَ عليها»[1] واردٌ في غير ما ذُكر، وعن مجاهد أنه أسلم الملك على يده، ولعلَّ إيثاره عليه السلام لتلك الولاية، إنما كان للقيام بما هو أهم من أمور السلطنة إذْ ذاك، من تدبير أمر السنين، حسبما فُصِّل في التأويل.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك التمكين البديع ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ جعلنا له مكاناً ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ في أرض مصر والتعبير بالتمكين في الأرض، مسنداً إلى ضميره تعالى، من تشريفه عليه السلام والمبالغة في كمال ولايته، أي مكنَّا له الأمور، فجلس على سرير الملك، ودانت له البلاد والعباد، وفوض الملِكُ أمره، وأقام العدل في مصر، وأحبّه الرجال والنساء ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا﴾ ينزل من قطاعها وبلادها ﴿حَيْثُ يَشَآءُ﴾ وهو عبارة عن كمال قدرته على التصرف فيها، ودخولها تحت مملكته وسلطانه، فكأنها منزله يتصرف فيها كما يتصرف الرجل في منزله ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا﴾ بعطائنا في الدنيا، من الملك والغنى وغيرهما ﴿مَن نَّشَآءُ﴾ بمقتضى الحكمة الداعية إلى المشيئة ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بل نوفيهم أجورهم عاجلاً وآجلاً، ولدفع توهُّم

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام ١٣/ ١٢٤ ومسلم رقم ١٦٥٢ في الإمارة، باب النهي عن طلب الإمارة.

انحصار ثمرات الإحسان فيما ذُكر، من الأجر العاجل، قال على سبيل التأكيد:

﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ ﴾ أي أجرهم في الآخرة الذي أعدَّه الله لهم، وهو النعيم المقيم الذي لا نفاد له ﴿ خَيْرٌ ﴾ لهم أي للمحسنين المذكورين ﴿ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ نبَّه تعالى على أن المراد بالإحسان، هو الإيمانُ والثبات على التقوى، المستفاد من جمع صيغتي الماضي والمستقبل، وفي الآية إشارة إلى أن ما أعد الله ليوسف في الآخرة، أفضل مما أعطاه في الدنيا.

﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ ﴾ ولما اشتد القحط، وعمَّ ذلك جميع البلاد، ونزل بآل يعقوب ما نزل بالناس، قال يعقوب عليه السلام لبنيه، بلغني أن بمصر مَلِكاً صالحاً يبيع الطعام، فتجهزوا له واقصدوه، لتشتروا منه ما تحتاجون إليه من الطعام، فخرجوا جميعاً غير «بنيامين» وصارت هذه الواقعة كالسبب في اجتماع يوسف مع إخوته وأبويه، وصدق ما أخبره الله تعالى عنه في رؤياه، وكان ابتلاء يوسف في الرؤيا، وكان سبب نجاته رؤيا الملك، أي فجاؤوا ﴿ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ ﴾ وهو في مجلس ولايته، وفي زي ملوك مصر ﴿ فَعَرَفَهُمْ ﴾ لقوة فهمه، وعدم مباينة أحوالهم السابقة لحالهم يومئذ، ولكون همته معقودة بمعرفة أحوالهم، لا سيما في زمن القحط، وكان مترقباً لمجيئهم، لما يعرف من تأويل رؤياه ﴿ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ أي والحال أنهم منكرون له لطول عهدهم، وتباين ما بين حاليه في نفسه وزيه، ولاعتقادهم أنه هلك، وحيث كان إنكارهم مستمراً أخبر عنهم بالجملة الاسمية، بخلاف عرفانه إياهم فقد كان محققاً، ولذلك أتى بالجملة الفعلية.

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ .

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ أي أصلحهم بعدتهم من الأمتعة، وأوفر ركابهم بما جاؤوا لأجله من المؤنة والطعام، وأصل الجهاز ما يُعدُّ من الأمتعة للنقلة كعدة السفر، وما تُزفُّ به المرأة إلى زوجها ﴿ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ ﴾ لم يقل بأخيكم مبالغة في إظهار عدم معرفته لهم، كأنه لا يدري من هو؟ وإنما قاله لمَّا سألوا حملاً زائداً لبنيامين فأعطاهم ذلك، واشترط عليهم أن يأتوا به ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ ﴾ أي أتمه لكم، وإيثار صيغة الاستقبال، للدلالة على أن ذلك عادة له مستمرة ﴿ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾؟ أي والحال أني في غاية الإحسان في إنزالكم وضيافتكم، وكان الأمر كذلك ولم يقله لهم بطريق الامتنان، بل لحثهم على تحقيق ما أمرهم به، والاقتصار على الكيل لأن معاملته معهم في ذلك كمعاملته مع غيرهم وأما الضيافة فليس للناس فيه حق فخصهم لذلك.

﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ ﴾ .

﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي ﴾ من بعدُ، فضلاً عن إيفائه ﴿ وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ أي لا تقربوني بدخول بلادي، وفيه دليل على أنهم كانوا على نية الامتيار مرة أخرى، والظاهر أن ما فعله معهم كان بوحي، وإلا فالبرُّ يقتضي أن يبادر إلى أبيه ويستدعيه، لكن الله سبحانه أراد تكميل أجر يعقوب عليه السلام في محنته، وهو الفعَّال لما يريد في خليقته.

﴿ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ .

﴿ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ ﴾ أي سنخادعه ونستميله برفق، ونجتهد في

ذلك، وفيه تنبيه على عزة المطلب وصعوبة مناله ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ ذلك لا محالة ولا نفرط فيه ولا نتوانى.

﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿وَقَالَ﴾ يوسف ﴿لِفِتْيَٰنِهِ﴾ لغلمانه الكيالين ﴿ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ﴾ والمراد بها البضاعة التي اشتروا بها الطعام، والرَّحْلُ: كل شيء يُعدُّ للرحيل من وعاء للمتاع، وجمعه رحال، كالسهم والسهام، أي اجعلوها في أوعيتهم، وإنما فعل ذلك تفضلاً عليهم، وليرجعوا لرد الأمانة، وكل ذلك لتحقيق ما يتوخاه من رجوعهم بأخيه، كما يؤذن به قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾ أي يعرفون حق ردها ﴿إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟﴾ أي رجعوا ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ﴾ فإن معرفتهم لها سبب لعودتهم إلى مصر، لأنهم منزهون عن أكل الحرام، على أن إخوة يوسف ما كانوا عالمين بجعل البضاعة في رحالهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ بأخيهم حسبما أمرتهم به.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ قالوه قبل أن يشتغلوا بفتح المتاع، أي حكم بمنعه بعد اليوم، إن لم نذهب بأخينا بنيامين، حيث قال لنا الملك: ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي﴾ ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا﴾ بنيامين إلى مصر ﴿نَكْتَلْ﴾ بسببه من الطعام ما نشاء ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ من أن يصيبه مكروه، فلما قالوا ذلك.

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ وقد قلتم في حقه أيضاً ما قلتم، ثم فعلتم ما فعلتم، فلا أثق بكم ولا بحفظكم، وإنما أفوّض الأمر إلى الله ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ يعني حفظُ الله تعالى خير من حفظكم له ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فأرجو أن يرحمني بحفظه، ولا يجمع عليَّ مصيبتين، وهذا ميل منه إلى الإذن والإرسال، لما رأى من المصلحة، ولم يشاهد فيما بينهم وبينه من الحسد، وفيه أيضاً من التوكل على الله تعالى.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ﴾ أي أوعية طعامهم ﴿وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ﴾ التي كانوا أعطوها ثمناً للطعام ﴿رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ تفضلاً وقد علموا ذلك من دلالة الحال ﴿قَالُوا۟﴾ لأبيهم ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى﴾؟ أي ماذا نبتغي ونطلب وراء ما وصفنا لك من إحسان الملك إلينا؟ الداعي إلى امتثال أمره؟ ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ أي هذه بضاعتنا ردَّها إلينا، بعدما منَّ علينا من المنن العظام، ولو كان رجلاً من آل يعقوب لما أكرمنا إكرامه، فهل هناك مزيد فوق هذا الإحسان؟ ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي نجلب الميرة والطعام من عند الملك لأهلنا ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ حسبما وعدناك ﴿وَنَزْدَادُ﴾ أي بواسطته ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ أي وسق بعير زائداً على ما أعطيناه سابقاً ﴿ذَٰلِكَ﴾ ما يحمل أباعرنا ﴿كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي مكيلٌ قليلٌ، إشارة إلى ما كيل لهم أولاً، فكأنهم قالوا إن ما جئنا به غير كافٍ بنا، فلا بدَّ من الرجوع مرة أخرى، ولا يكون ذلك إلا باستصحاب أخينا.

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ ﴾ بعدما عاينت منكم ما عاينت، ممَّا أجرى المدامع ﴿ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي عهداً موثوقاً من الله تعالى، أراد به أن يحلفوا بالله ﴿ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ ﴾ جواب القسم إذ المعنى حتى تحلفوا بالله لتأتنني به ﴿ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ إلا أن تغلبوا فلا تطيقوا به ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ ﴾ أي عهدهم من الله تعالى حسبما أراد يعقوب ﴿ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ ﴾ من طلب المواثقة ﴿ وَكِيلٌ ﴾ مطَّلعٌ ورقيبٌ على ما نقول، يريد به حثهم على مراعاة ميثاقهم، وتحذيرهم من الغدر، بمعنى أنه موكول إليه تعالى، فإن وفيتم جازاكم بأحسن الجزاء، وإن غدرتم فيه كافأكم بأعظم العقوبات.

﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ ﴾ ناصحاً لهم لمَّا عزم على إرسالهم جميعاً ﴿ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا۟ ﴾ مصر ﴿ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ ﴾ نهاهم عن ذلك، حَذَراً من إصابة العين، فإنهم كانوا ذوي جمال، وهيئة حسنة، وقد اشتهروا بين أهل مصر بالزلفى والكرامة عند الملك، فكانوا مظنة لأن يصابوا بالعين إذا دخلوا كوكبةً واحدة، وحيث كانوا مجهولين بين الناس، لم يوصهم بالتفرق في المرة الأولى ﴿ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾ بيان لما هو المراد بالنهي، وإنما لم يكتف بهذا الأمر، إظهاراً لكمال العناية به، وإصابة العين حقٌّ، أثبتها أهل السنة، وهي إنما تكون بتقدير العزيز الحكيم، فقد روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن العين حقٌّ...»[1] يعني إصابة النفس بواسطتها، أمر كائن

(١) أخرجه البخاري ١٠/ ٢٠٣ بلفظ «العينُ حقٌّ، ونهى عن الوشم»، ومسلم رقم ٢١٨٧.

لا شبهة في تحققه، وهو كسائر الآثار المشاهدة، نحو النار، والماء، والأدوية، لأن مدار كل شيء المشيئة الإلَهية، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وحكمةُ خلق الله التأثير في العين مجهولٌ لنا، فقد صرحوا بأن الأدعية والرُّقى من جملة الأسباب، لدفع أذى العين، وقد كان ﷺ يعوِّذ الحسن والحسين بقوله: «أعيذكما بكلماتِ الله التامَّة، من كل شيطان وهَامَّة، ومن كلِّ عينٍ لامَّة»[1] ومن الدعاء: «ما شاء الله، لا قوة إلاَّ بالله، حصَّنتُ نفسي بالحيِّ القيوم، الذي لا يموتُ أبداً، ودفعتُ عنها السُّوءَ بألف ألفِ لا حول ولا قوة إلا بالله» وليس من شرط التأثير أن يكون بالكيفيات المحسوسة، بل قد يكون التأثير نفسانياً، والذي يدل عليه، أن اللوح الذي يكون قليل العرض، إذا كان موضوعاً على الأرض، قَدَر الإنسان على المشي عليه، ولو كان موضوعاً بين جدارين عاليين، لعجز عن المشي عليه، وما ذاك إلا لأن خوفه من السقوط، يوجب سقوطه، فعلمنا أن التأثيرات النفسانية موجودة، ولا يمتنع كون هذا التأثير مؤثراً في سائر الأبدان، وأيضاً إن الإنسان إذا تصور أن فلاناً مؤذٍ له، حصل في قلبه غضب فمبدأ ذلك ليس إلا التصور النفساني ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم﴾ أي لا أنفعكم، ولا أدفع عنكم بتدبيري ﴿مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي شيئاً مما قضى عليكم، فإن الحذَر لا يمنع القدر، ولم يرد به إلغاء الحذر، كيف لا وقد قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ وقال: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ بل أراد أنَّ ما وصَّاهم به تدبير في الجملة، وإنما التأثير وترتب المنفعة عليه من العزيز القدير، وإن ذلك ليس بمدافعة للقدر، بل هو امتثال بأمره، واستعانة به، وهربٌ منه إليه ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ﴾ أي ما الحكم مطلقاً ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ لا يشاركه أحد ولا يمانعه شيء ﴿عَلَيْهِ﴾ لا على أحد سواه ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ في كل ما آتي وأذر، وفيه دلالة على أن ترتيب الأسباب غير

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٦/٤٠٨.

مخلّ بالتوكل ﴿وَعَلَيْهِ﴾ دون غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ وفيه ما لا يخفى من حسن هدايتهم وإرشادهم إلى التوكل.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ من الأبواب المتفرقة من البلد، ودخلوا متفرقين ﴿مَّا كَانَ﴾ ذلك الدخول ﴿يُغْنِى عَنْهُم﴾ أي ينفعهم أو يدفع عنهم ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ من جهته تعالى ﴿مِن شَىْءٍ﴾ أي شيئاً قضاه تعالى عليهم، أي ولمَّا فعلوا ما وصَّاهم به، لم ينفعهم ذلك شيئاً، ﴿إِلَّا حَاجَةً﴾ كائنةً ﴿فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ أي أظهرها ووصاهم بها، فالمعنى: ما كان ذلك الدخول يغني عنهم من جهة الله شيئاً، ولكن قضاء حاجة حاصلةٍ في نفس يعقوب، وهي خوف إصابة العين ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي يعقوب عليه السلام ﴿لَذُو عِلْمٍ﴾ جليل ﴿لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ بالوحي والنبوَّة حيث لم يعتقد أن الحَذَر يمنع القدر ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أسرار القدر ويزعمون أنه يغني عنه الحذر.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ﴾ بنيامين أي ضمَّه إليه في الطعام والسكن روي أنهم لمَّا دخلوا عليه قالوا له: هذا أخونا قد جئناك به، فقال لهم: أحسنتم، فأكرمهم ثم أضافهم، وأجلسهم مثنى مثنى، فبقي بنيامين وحيداً، ثم أنزل كل اثنين بيتاً، فقال: هذا لا ثاني له، فيكون معي، فلما خلا به قال له يوسف: فهل لك من أخ لأمك؟ قال: كان لي

أخ فهلك، فقال له: أتحب أن أكون أخاً بدل أخيك الهالك؟ قال: من يجد أخاً مثلك، ولكنْ لم يلدك يعقوبُ ولا راحيل؟ فبكى يوسف وقام إليه وعانقه ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَنَآ أَخُوكَ﴾ يوسف ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾ أي فلا تحزن ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ بنا فيما مضى، فإن الله قد أحسن إلينا وجمعنا بخير، ولا تُعلمهم بما أعلمتك.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ٧٠﴾.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ﴾ ووفى لهم الكيل، وهيأ لهم أسباب السفر ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ﴾ المشربة التي كان الملك يشرب فيها، قيل من ذهب وقيل من فضة مرصعة بالجواهر وقيل كانت تسقى بها الدواب ويكال به الحبوب والأولى أن يقال كان شيئاً له قيمة ﴿فِي رَحۡلِ أَخِيهِ﴾ بنيامين، والظاهر أنه لم يباشر بنفسه، بل أمر أحداً فجعلها ﴿في رحل أخيه﴾ بنيامين من حيث يشعر أو لا يشعر، وأمهلهم حتى انطلقوا ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ أي نادى منادٍ ﴿أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ﴾ العِيرُ بالكسر: الإبلُ تحمل الميرة، ثم غلب على كل قافلة لأنها تذهب وتجيء، والمراد أصحابها ﴿إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾ هذا الخطاب إن كان بأمر يوسف عليه السلام فلعله أريد بالسرقة أخذهم له عن أبيه على وجه الخيانة، وإلا فهو من قبل المؤذن بناءً على زعمه، والذي يظهر أن هذا التحايل ورمي البراء بالسرقة وإدخال الهم على يعقوب عليه السلام بوحي من الله تعالى، لما علم سبحانه في ذلك من الصلاح، ويؤيده قوله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَ﴾.

﴿قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ٧١﴾.

﴿قَالُواْ﴾ أي الإخوة ﴿وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم﴾ أي على طالبي السقاية المفهوم من الكلام، أي قالوا مقبلين عليهم ﴿مَّاذَا تَفۡقِدُونَ﴾ أيْ أيّ شيءٍ ضاع

عنكم؟ والعدول عن قولهم ماذا سرق منكم؟ فيه إرشاد لهم إلى مراعاة حسن الأدب، فلذا غيَّروا كلامهم، حيث تلطفوا بعد ذلك.

﴿ قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ٧٢ ﴾.

﴿ قَالُواْ ﴾ أي في جوابهم ﴿ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ ﴾ الصُّواعُ: المكيالُ وهو السقاية، ولم يقولوا: سرقتموه، أو سُرِق امتثالاً للأدب، أي قالوا: ضاع منا مكيال الملك المرصَّع بالجواهر ﴿ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ ﴾ من عند نفسه مظهراً له قبل التفتيش ﴿ حِمۡلُ بَعِيرٖ ﴾ من الطعام ﴿ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ﴾ كفيل أؤديه إلى من ردَّه، وفيه دليل على جواز الجُعالة وضمان الجُعْلِ.

﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ٧٣ ﴾.

﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ ﴾ قسم وفيه تعجيب، كأنهم تعجبوا من رميهم بما ذكر، مع ما شاهدوه من حالهم واشتهارهم بالعفة والصلاح، ولذا قالوا ﴿ لَقَدۡ عَلِمۡتُم ﴾ علماً جازماً مطابقاً للواقع ﴿ مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي لنسرق فإن السرقة من أعظم أنواع الإفساد ﴿ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴾ أي وما كنا نوصف قط بالسرقة.

﴿ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ٧٤ ﴾.

﴿ قَالُواْ ﴾ أي أصحاب يوسف ﴿ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ ﴾ أي فما جزاء سرقته في شريعتكم ﴿ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴾ أي في ادعاء البراءة.

﴿ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٥ ﴾.

﴿قَالُواْ﴾ أي الإخوة ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ﴾ أي أخذ من وُجد الصواع ﴿فِي رَحۡلِهِۦ﴾ بأن يسترقَّ ويصبح مملوكاً ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ تقرير لذلك الحكم، أي فأخذه جزاؤه، كقولك حق الضيف أن يكرم، فهو حقه ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الأوفى ﴿نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالسرقة، تأكيد للحكم المذكور وبيان لقبح السرقة، ولقد قالوا ذلك ثقة بكمال براءتهم عنها، وهم عما فُعل بهم غافلون.

﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦﴾.

﴿فَبَدَأَ﴾ يوسف، قيل إن أخوة يوسف لما أقروا أنَّ جزاء السارق أن يستعبد سنة، قال أصحاب يوسف لا بد من تفتيش رحالكم، فردوهم إلى يوسف، فأمر بتفتيشها بين يديه، فبدأ ﴿بِأَوۡعِيَتِهِمۡ﴾ بتفتيش أوعية الإخوة العشرة ﴿قَبۡلَ﴾ تفتيش ﴿وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ لنفي التهمة، روي أنه لما بلغت النوبة إلى وعاء أخيه قال: ما أظنُّ هذا أخذ شيئاً، فقالوا: والله لا نتركه حتى تنظر في رحله، فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا، فلما فتحوا متاعه وجدوا الصواع فيه ﴿ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا﴾ أي السقاية ﴿مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ﴾ لم يقل منه، قصداً إلى زيادة الكشف والبيان، والوِعاءُ: الظرفُ الذي يُحفظ فيه الشيء، وكأن المراد به هنا ما يشمل الرَّحْل وغيره، لأنه الأنسب بمقام التفتيش ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الكيد العجيب، ﴿كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ﴾ أي صنعنا له لأجل غرضه، فالكيد مستعار للحيلة، وهو من الخلق الحيلةُ ومن الله تعالى التدبيرُ بالحق ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾ أي في حكمه، لأن جزاء السارق في قضائه، إنما كان ضربه وتغريمه ضعف ما أخذ، دون الاسترقاق سنة، فلم يكن يتمكن من أخذ أخيه ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ إلا حال مشيئته تعالى وإرادته لذلك الكيد، لأنه كان إلهاماً من الله ليوسف،

حتى جرى الأمر على وفق المراد ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ رفعه أي رتباً كثيرة عالية، من العلم والحكمة، حسبما تقتضيه المصلحة ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ قال ابن عباس: فوق كل عالم عالمٌ، إلى أن ينتهي العلم إلى الله تعالى.

﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ﴾ يعنون بنيامين ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ﴾ يريدون به يوسف، قالوه كذباً وبهتاناً على يوسف، كما اتهموا أخاه بنيامين، وغرضهم أن عادة هؤلاء السرقة، فعيروه بها عند الغضب ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ﴾ أي أضمر الحزازة التي حصلت له مما قالوا ﴿فِى نَفْسِهِۦ﴾ لا أنه أسرها لبعض أصحابه ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ﴾ لا قولاً ولا فعلاً، صفحاً عنهم وحلماً ﴿قَالَ﴾ في نفسه ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ﴾ منزلة حيث سرقتم أخاكم، وألقيتموه في الجب، وكذبتم على أبيكم بأنه أكله الذئب ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أي عالم علماً بالغاً إلى أقصى المراتب، بأن الأمر ليس كما تصفون، من صدور السرقة منا، إنما هو افتراء علينا، لم يواجههم بهذا الكلام إنما قاله في نفسه.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ أي إن أباه كبير في السن، لا يكاد يستطيع فراقه، يتعلل به عن شقيقه الهالك ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ فلسنا عنده بمنزلته، من المحبة والشفقة ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إلينا

فأتمم إحسانك، فقد عوَّدتنا الجميل والإحسان، يقولون له ذلك استعطافاً واسترحاماً.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي نعوذ بالله ﴿أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ أي أن نأخذ أحداً بجرم غيره، وأخذنا له إنما هو بقضية فتواكم، فليس لنا الإخلال بموجبها وقوله: ﴿مَنْ وَجَدْنا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾ دون من سرق، لتحقيق الحق، والاحتراز عن الكذب في الكلام، والمتاعُ: اسم لما ينتفع به، وأُريد به الصُّواعُ، وما ألطف استعماله مع الأخذ المراد به الاسترقاق!! ﴿إِنَّآ إِذًا﴾أي إذا أخذنا غيره ولو برضاه ﴿لَّظَٰلِمُونَ﴾ في مذهبكم.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُّمُونِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ﴾ يئسوا من يوسف وإجابته إيَّاهم، وزيادة السين والتاء للمبالغة، أي يئسوا يأساً كاملاً، واستيقنوا أن الأخ لا يُردُّ إليهم، لما شاهدوه من عوذه بالله، ومن تسميته ظلماً ﴿خَلَصُوا۟﴾ انفردوا عن غيرهم ﴿نَجِيًّا﴾ أي متناجين متشاورين في ما يقولون لأبيهم ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ في السن وهو «روبيل» ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟﴾ كأنهم أجمعوا على التناجي فقال منكراً عليهم ألم تعلموا ﴿أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي عهداً وثيقاً، وهو حلفهم بالله تعالى ﴿وَمِن قَبْلُ﴾ أي من قبل هذا ﴿مَا فَرَّطتُّمُونِى يُوسُفَ﴾ أي ما قدمتموه من الخيانة، ولم تحفظوا عهد أبيكم، وقد قلتم: إنا له

لحافظون ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ فلن أفارق أرض مصر ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ بالانصراف إليه ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ بالخروج منها على وجه لا يؤدي إلى نقض الميثاق، أو بخلاص أخي بنيامين ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ إذ لا يحكم إلاَّ بالحق، والمراد من هذا الكلام، الالتجاء إلى الله تعالى.

﴿ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾ على ما شاهدنا من ظاهر الأمر ﴿وَمَا شَهِدْنَا﴾ عليه ﴿إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ من سرقته وتيقناه، حيث استخرج صواع الملك من رحله ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الميثاق.

﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿وَاسْأَلِ﴾ أهل ﴿الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ يعنون مصر، والمعنى: وأرسل إلى أهلها واسألهم عن القصة ﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ وأصحاب العير التي كنا معهم، فإن القصة معروفة فيما بينهم، وكانوا قوماً من كنعان من جيران يعقوب ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فيما أخبرناك به.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ يعقوب عليه السلام عندما رجعوا إليه، فقالوا له ما قالوا ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ أي سهَّلت وزينت، وهو إضراب عما يتضمنه كلامهم من ادعاء البراءة عن التسبب، كأنه قيل: لم يكن الأمر كذلك، بل

زينت لكم أنفسكم أمراً من الأمور، ومكيدة نفذتموها على أخيكم ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ فأمري صبر جميل ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ بيوسف وأخيه الذي توقف بمصر، وإنما قال هذا، لأنه لمَّا طال حزنه، واشتد بلاؤه، علم أن الله سيجعل له فرجاً عن قريب، لأنه إذا اشتد البلاء وعظم، كان أسرع إلى الفرج ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي العالم بحالي، الحكيم في تدبيره وتصريفه.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أي أعرض ﴿عَنْهُمْ﴾ كراهة لما جاؤوا به ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ الأسف: أشدُّ الحزن، أضافه إلى نفسه، والمعنى: يا أسفي تعالَ فهذا أوانك، وإنما تأسف على يوسف، مع أن الحادث مصيبة أخيه، لأن مصيبته قاعدة المصيبات وكان آخذاً بمجامع قلبه، ولأن الحزن الجديد، يقوي الحزن القديم، وفي «أسفاً» و«يوسف» تجنيس نفيس من غير تكلف، وهو مما يزيد الكلام الجليل بهجة وحسناً ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ أي بسببه، والبكاء سبب لابيضاض عينيه، فإن العَبْرة إذا كثرت محقت سواد العين، وقلبته إلى بياض وكدر، قيل إنه قد عمي بصره، وقيل: بل عَشِيَ فهو يدرك إدراكاً ضعيفاً، واستدل بالآية على جواز التأسف، والبكاء عند النوائب، ولعل الكف عن أمثال ذلك، لا يدخل تحت التكليف، فإنه قلَّ من يملك نفسه عند الشدائد، وقد روى الشيخان «أنه ﷺ بكى على ولده إبراهيم»[1]، وأما المنهي عنه فهو ما يفعله الجهلة من النياحة، ولطم

(١) أشار إلى ما رواه البخاري ٣/ ١٩٣ ومسلم رقم ٢٣١٥ عن أنس أن رسول الله ﷺ أخذ ابنه إبراهيم، فقبَّله وشمَّه، وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، وقال: «إن العينَ تدمع، والقلبَ يخشع، ولا نقول إلاَّ ما يُرضي ربَّنا، وإنَّا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون».

الخدود، والصدور، وتمزيق الثياب ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوء من الغيظ على أولاده، ممسك له في قلبه، لا يظهره، فعيل بمعنى مفعول.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿قَالُوا﴾ أي الجماعة من أهله ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ﴾ أي لا تفتأ ولا تزال ﴿تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ تفجعاً عليه، فحذف حرف النفي، لأن القسم إذا لم يكن معه علامة الإثبات كان على النفي، وعلامة الإثبات هي اللامُ، ونونُ التأكيد، ولو كان المقصود ههنا الإثبات لقيل لتفتأن ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ أي مريضاً مشفياً على الهلاك، حَرِض من باب تعب أشرف على الهلاك، فهو حَرِضٌ ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ من الميتين، أرادوا بذلك منعه عن كثرة الأسف والحزن.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي﴾ البثُّ أصعبُ الهمِّ الذي لا يصبر صاحبُه عليه، فيبثه إلى الناس، أي ينشره، والحزن إذا ستره الإنسان كان همَّاً، وإذا ذكره لغيره كان بثّاً، فكأنهم قالوا ذلك بطريق التسلية فقال لهم: إني لا أشكو ما بي إليكم حتى تتصدَّوا لتسليتي وإنما أشكو همي وحزني ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ تعالى ملتجئاً إلى الله، متضرعاً لدى بابه في دفعه ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ﴾ من لطفه ورحمته، فأرجو أن يرحمني ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من رؤيا يوسف أنه لا يموت، حتى يخرَّ له أخوته سجداً، تحقيقاً للرؤيا.

﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ﴾ أي تعرَّفوا وهو من الحسِّ، أي تعرَّفوا من خبرهما بحواسكم، وقيل التحسُّسُ طلب الخير، وبالجيم يكون في الشر، ومنه الجاسوس، أي تطلبوا ﴿مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أي من خبرهما و أمرهما ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ﴾ أي لا تقنطوا من فَرَجه وتنفيسه، والرَّوْحُ بالفتح: ما يجده الإنسان من نسيم الهوى، يقال: أراح الإنسان إذا تنفس، ثم استعير للفَرَج، وهذا إرشاد لهم إلى بعض ما أُبهم في قوله ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ثم حذرهم عن ترك العمل بموجب نهيه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ بالله وصفاته، فإن المؤمن العارف لا يقنط من رحمته تعالى أبداً، واستدل البعض بالآية، على أن اليأس من رحمة الله كفر، وجمهور الفقهاء على أن اليأس كبيرة، ومفاد الآية أنه من صفات الكفار، لا أن من ارتكبه كان كافراً.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ٨٨﴾.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ﴾ أي على يوسف بعدما رجعوا إلى مصر، بموجب أمر أبيهم، وأنكر اليهود رجوعهم، وهو الذي تضمنته توراتهم اليوم، ولا يوثق بها لأنها محرَّفة على وجه اليقين ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ﴾ خاطبوه بذلك تعظيماً له ﴿مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ أي الهزال من شدة الجوع، قالوا ذلك: استرحاماً واستعطافاً ﴿وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ﴾ مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها، وكني بها عن الرديء فقد كانت بضاعتهم من متاع الأعراب، صوفاً وشَعَراً ﴿فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ﴾ فأتمم لنا الكيل ولا تنقصه لقلة بضاعتنا أو رداءتها ﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ﴾ بالإيفاء وقبول البضاعة الرديئة، وإنما قالوا تصدَّقْ تواضعاً، وكأنهم أرادوا تفضل علينا بذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾ أي يُثيب المحسنين المتصدقين أحسن الجزاء والثواب. روي أنهم لما قالوا ﴿مَسَّنا وأَهْلنا الضُرُّ﴾ وتضرعوا إليه وطلبوا التصدق، أعطوه كتاب يعقوب

عليه السلام، وقد كتب فيه «من يعقوب بن إسحق بن إبراهيم إلى عزيز مصر، أما بعد: فإنَّا أهل بيت، موكَّل بنا البلاء أمَّا جدي إبراهيم فإنه ابتلي بالنار فصبر، وجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وأما أبي إسحق فابتلي بالذبح فصبر، ففداه الله بذبح عظيم، وأما أنا فكان لي ابن وكان أحبَّ الأولاد إليَّ فذهب به إخوته إلى البرية، ثم أتوني بقميصه ملطخاً بالدم، وقالوا: قد أكله الذئب، فذهبت عيناي من بكائي عليه، وكنت أتسلى بهذا الغلام الذي أمسكته عندك، وزعمت أنه سارق، وإنَّا أهل بيتٍ لا نسرق، ولا نلد سارقاً، فإن رددته عليَّ، وإلا دعوت عليك والسلام». فلما قرأه فاضت عيناه، فقال لهم:

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ وكان الظاهر أن يتعرض لما فعلوا بأخيه، منها إفراده عن يوسف وإذلاله، حتى كان لا يستطيع أن يكلمهم إلا بعجز وذلة وغير ذلك وإنما تعرض لما فعلوا بيوسف لإشراكهما في وقوع الفعل عليهما أي هل علمتم قبح ما فعلتم بيوسف وأخيه؟ فهل تبتم عن ذلك؟ ﴿ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴾ أي هل علمتم قبح ما فعلتموه زمان جهلكم؟ وإنما قال ذلك، نصحاً لهم، وتحريضاً على التوبة، وشفقة عليهم، لما رأى من عجزهم وتمسكنهم ما رأى، وهو من أرق القلب، فكشف أمره.

﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ ﴾؟ استفهام تقرير، ولذلك حُقِّق بإنَّ ودخول اللام عليه، قالوه استغراباً وتعجباً ﴿ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ ﴾ جواباً عن مسألتهم وزاد عليه ﴿ وَهَٰذَآ أَخِيۖ ﴾ من أبي وأمي ذكره تعريفاً لنفسه به،

وتفخيماً لشأنه، وإدخالاً له في قوله: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ بالسلامة والكرامة، وبالألفة بعد الفرقة، والعزة بعد الذلة، والأنس بعد الوحشة ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ﴾ أيّ يفعل التقوى في جميع أحواله، ويقِ نفسه عما يوجب سخط الله وعذابه ﴿وَيَصْبِرْ﴾ على البلايا والمحن ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي أجرهم، وإنما وضع المظهر تنبيهاً على أن المنعوتين بالتقوى والصبر موصوفون بالإحسان.

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ اختارك وفضلك علينا بحسن الصورة، وكمال السيرة، وبالعلم والحلم، والصبر والتقوى، وسائر الفضائل ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ المتعمِّدين للذنب إذ فعلنا بك ما فعلنا ولذلك إن الله تعالى أعزك وأذلنا بالتمسكن بين يديك، والخاطىء من خطىء إذا تعمَّد فعل الذنب، وفي قولهم هذا الاعتراف بما صدر منهم في حقه مع الإشعار بالتوبة، ولذلك أظهر جوابَه بالصفح المغفرة.

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ﴾ أي لا تأنيب ولا لوم ﴿عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي لا تثريب عليكم اليوم ولا عتاب، بل أصفح عنكم وأعفو ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ دعا لهم بالمغفرة ممَّا فرط منهم ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ يغفر الصغائر والكبائر، ويتفضل على التائب بالقبول.

﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا﴾ القميص الذي كان عليه ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ أي يأتي إليَّ وهو بصيرٌ ﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي بأبي وأقربائه من النساء والذراري، وفيه دلالة على أنه عليه السلام قد ذهب بصره، وعلم يوسف ذلك بإعلامهم، أو بالوحي، قال الكلبي: كان أولئك الأهل نحواً من سبعين إنساناً، وقد نموا في مصر، فخرج منها مع موسى عليه السلام ستمائة ألف وخمسمائة وسبعون على ما قيل.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ من مصر، وخرجت من عمرانها منطلقة إلى بلد يعقوب، يقال: فصل من البلد إذا انفصل منه، وكان بينهما مسيرة ثمانية أيام ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ يعقوب عليه السلام لمن عنده ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ أي لأشمُّ رائحة يوسف[1] ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ أي تنسبوني إلى الفَنَد، وهو الخَرَفُ ونقصانُ العقل من الهرم، وجواب «لو» محذوفٌ تقديرُه: لصدَّقتموني.

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿قَالُوا۟﴾ أي قال من كان بحضرته من ذوي قرابته ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ أي لفي ذهابك عن الصواب، في إفراط محبتك ليوسف، ورجائك للقائه، قال قتادة: لقد قالوا كلمةً غليظة، لا ينبغي أن يقولها مثلهم لمثله عليه السلام، وإنما قالوا ذلك لاعتقادهم أن يوسف قد مات.

---

(١) قال ابن عباس: هاجت ريح فحملت ريح قميص يوسف، وبينهما مسيرة ثمانية أيام. اهـ. تفسير القرطبي ٩/ ٢٥٩.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ قال مجاهد هو «يهوذا» قال لإخوته: قد علمتم أني ذهبت إلى أبي بقميص الدم، فأنا أفرحه كما أحزنته فتركوه، وجاء البشير من بين يدي العير ﴿أَلْقَىٰهُ﴾ أي ألقى البشير القميص ﴿عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي وجه يعقوب فأخذه فشمه، ثم وضعه على بصره ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ عاد بصيراً بعد أن عمي، ورجعت إليه قوته وسروره بعد الحزن والضعف ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ يحتمل أن يكون خطاباً لمن كان عنده، ويحتمل أن يكون خطاباً لبنيه القادمين، أي ألم أقل لكم لا تيأسوا من رحمة الله، وهو الأنسب بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؟ من حياة يوسف وإنزال الفرج.

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾ طلبوا منه الاستغفار، ونادوه بعنوان الأبوّة، تحريكاً للعطف والشفقة، وعلّلوا ذلك بقولهم ﴿إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ أي اسأل لنا المغفرة على ما ارتكبنا في حقك وحق ابنك، إنّا تبنا واعترفنا بذنوبنا، ومن حقّ من اعترف بذنبه أن يصفح عنه!!.

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ روي عن ابن عباس أنه أخر الاستغفار لهم إلى السحر، لأن الدعاء فيه مستجاب، وروي عنه أيضاً إلى سحر ليلة الجمعة. رواه الترمذي وحسَّنه[1].

---

(١) وروى الحافظ ابن كثير ٢/٥٠٨ أن عمر بن الخطاب كان يأتي المسجد، فيسمع إنساناً يقول: «اللهمَّ دعوتني فأجبتُ، وأمرتني فأطعتُ، وهذا السَّحَرُ فاغفر لي» فاستمع الصَّوْتَ =

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ روي أن يوسف عليه السلام جهَّز إلى أبيه جهازاً، ومائتي راحلة، ليتجهز إليه بمن معه، فرحل يعقوب عليه السلام بأهله، وساروا حتى أتوا معالم مصر، وخرج يوسف بأربعة آلاف من الجند، ومن العظماء لاستقباله، فتلقوه، فنظر يعقوب إلى الخيل والناس، فقال يا يهوذا: أهذا فرعون مصر؟ قال: لا يا أبتِ، ولكنْ هذا ابنك يوسف، خرج بأشراف مصر يتلقاك، فلما لقيه نزلا وتعانقا، وبكيا سروراً ﴿ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾ أي ضمهما إليه حين استقبلوهم، وكان قد أنزلهم في مضرب خيمة، فدخلوا عليه وضمهما إليه، والمراد بهما أبوه وخالته «ليَّا» والخالة تنزل منزلة الأم لشفقتها، كما ينزل العم منزلة الأب ﴿ وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ ﴾ وكأنه عليه السلام ضرب في الملتقى خارج البلد مضرباً، فنزلوا فيه فدخلوا عليه، فآواهما إليه، ثم طلب منهم الدخول في البلدة، فهنا دخولان: أحدهما خارج البلدة، والثانية في البلدة ﴿ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ من القحط، والشدائد، والمكاره قاطبة.

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ ﴾ عند نزولهم بمصر ﴿ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ على السرير تكرمةً

= فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود، فسأل عبدَ اللهِ عن ذلك، فقال: إن يعقوب أخَّر بنيه إلى السَّحر في قوله: ﴿سوف أستغفر لكم ربي﴾.

لهما، فوق ما فعله لإخوته، وهو السرير الذي كان يجلس عليه يوسف، والرفع النقل إلى العلو ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ﴾ أي أبواه وأخوته ﴿سُجَّدًا﴾ أي على الجباه كما هو الظاهر، لأن السجود يكون بعد الخرور، وكان جائزاً عندهم، وهو جارٍ مجرى التحية عندنا، كالقيام، والمصافحة، وتقبيل اليد من عادات الناس ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ﴾ التي رأيتها وقصصتها عليك ﴿مِن قَبۡلُ﴾ في زمن الصبا ﴿قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗا﴾ صدقاً واقعاً بعينه، كما رأيتها في النوم ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ﴾ أي أنعم عليَّ، والأصل أن يتعدى الإحسان بإلى أو اللام، وقيل الباء بمعنى إلى، وقيل هذا بتضمين لَطَفَ وهو تضمينٌ للإحسان الخفي ﴿إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾ بعدما ابتليت به، ولم يصرح بقصة الجب حذراً من خجل إخوته ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ لأنهم كانوا أصحاب الماشية، وأهل البدو، أي البادية ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ أفسد بيننا بالإغواء، وقد بالغ عليه السلام في الإحسان، حيث أسند ذلك إلى الشيطان ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ﴾ أي لطيف التدبير حتى يجيء على وجه الحكمة والصواب، وما من صعبٍ إلاّ وهو بالنسبة إلى تدبيره سهل، اللطيف هنا بمعنى العالم بخفايا الأمور، المدبر لها فإذا أراد شيئاً سهَّل أسبابه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ﴾ بوجوه المصالح والتدابير ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ الذي يفعل كل شيء في وقته على وجه يقتضي الحكمة. روي أن يعقوب قال ليوسف: يا بنيَّ ما أعقَّكَ؟ عندك هذه القراطيسُ وما كتبت حالك إليَّ؟ قال: أمرني بذلك جبريل قال: أو تسأله؟ قال: أنت أبسط إليه مني، فسأله فقال جبريل: الله تعالى أمرني بذلك، لقولك: ﴿وأخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ فهلاَّ خفتني!! وهذا عذر واضح ليوسف في عدم إعلامه به، لكنْ يبقى سؤالٌ بأن يعقوب عليه السلام، كان من أكابر الأنبياء نفساً، وأباً، وجداً، وكان مشهوراً في البلدان، ثم وقعت له واقعة هائلة في أعزِّ أولاده، ويوسف ليس بمكان بعيد، فكيف غُمَّ أمره، ولم يصل إلى أبيه خبرُه؟ وأجيب عن ذلك بأنه ليس إلاّ من باب خرق العادة، واختلف في مقدار المدة بين الرؤيا، وظهور تأويلها، فقيل سبعون سنة، وعن سلمان الفارسي

أنها أربعون سنة، وهو قول الأكثرين، والله أعلم بحقائق الأمور، وروي أن يعقوب أقام مع يوسف أربعاً وعشرين سنة، في أهنأ عيشٍ، وأحسن حالٍ، فلما حضرته الوفاة أوصى يوسف بدفنه بالشام، إلى جنب أبيه إسحق، فمضى يوسف عليه السلام بنفسه ودفنه ثمَّة ثم عاد إلى مصر، وعاش بعد أبيه ثلاثاً وعشرين سنة، ولما تم أمره، وعلم أنه لا يدوم إلا الحيُّ القيوم، تاقت نفسه إلى المُلكِ الدائم، فتمنى الموت، فقال ما حكاه عنه القرآن:

﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ .

﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ ﴾ أي بعضاً منه وهو ملك مصر ﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ ﴾ أي بعضاً من ذلك، لأنه لم يؤت كل التأويل ﴿ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي مبدعهما وخالقهما ابتداءً على غير مثال سابق ﴿ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى ﴾ أي اقبضني ﴿ مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ من آبائي أو بعامة الصالحين من عبادك المؤمنين وتمني الموت حباً للقاء الله تعالى، مما لا بأس به، فقد روى الشيخان عن النبي ﷺ أنه قال: «من أحبَّ لقاءَ الله تعالى أحبَّ اللهُ لقاءَه..»[1] الحديث. نعم تمني الموت عند نزول البلاء منهيٌّ عنه، ففي الحديث الشريف: «لا يتمنينَّ أحدُكم الموتَ لضُرٍّ نَزَل به»[2] وقيل: إن يوسف لم يأت عليه أسبوع، حتى توفاه الله تعالى.

---

(١) هذا طرف من حديث شريف أخرجه البخاري ٣٠٨/١١ ومسلم رقم ٢٦٨٣ وتتمة الحديث «ومن كره لقاءَ الله، كره اللهُ لقاءه، فقالت عائشة يا رسول الله: كلُّنا يكره الموت! فقال ﷺ: ليس كذلكِ ـ أي ليس الأمرُ كما فهمتِ ـ ولكنَّ المؤمن إذا حضره الموتُ، بُشِّر برضوان الله وكرامته، فأحبَّ لقاء الله فأحبَّ الله لقاءه..» الخ.

(٢) الحديث أخرجه البخاري ١٠٧/١٠ ومسلم رقم ٢٦٨٠ وتتمته «فإن كان لا بدَّ فاعلاً فليقل: اللهمَّ أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفَّني إذا كانت الوفاة خيراً لي».

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ .

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما ذكر من نبأ يوسف والخطاب فيه للرسول ﷺ ﴿ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ ﴾ من أخبار الغيب الذي لا يحوم حوله شك ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ أي أوحيناه إليك يا محمد ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ ﴾ أي لدى بني يعقوب ﴿ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ ﴾ وهو إلقاؤه في غيابة الجب ﴿ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ به ويبغون له الغوائل، والمعنى: إن هذا النبأ غيب، لم تعرفه إلاَّ بالوحي، لأنك لم تحضر إخوة يوسف، حين عزموا على ما همُّوا به، من أن يجعلوه في غيابة الجب، ومن المعلوم أنك ما لقيت أحداً سمع ذلك فتعلمته منه، وإنما حذف لعلمه من آية أخرى كقوله تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ ومكرهم وما دبّروه لا يمكن معرفته إلا بطريق الوحي، وأياً ما كان ففي الآية إيذان بأن ما ذكر من النبأ هو الحق، وهذه القصة وردت على أحسن ترتيب، وأبين بيان، وأفصح عبارة، فعُلِم بذلك أنه وحيٌ، إلَهيٌ فهو معجزة له ﷺ قائمة إلى آخر الدهر.

﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ .

﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ ﴾ يراد به أهل مكة ﴿ وَلَوْ حَرَصْتَ ﴾ اجتهدت كل الاجتهاد على إيمانهم، وبالغت في إظهار الآيات القاطعة، الدالة على صدقك ﴿ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ لإصرارهم على العناد، روي أن اليهود وقريشاً سألوا عن قصة يوسف، ووعدوه أن يُسلموا، فلما أخبرهم بها ولم يسلموا، حزن النبي ﷺ لذلك، فنزلت السورةُ تسلية له ﷺ.

﴿ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ .

﴿ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي على تبليغ الوحي والقرآن ﴿ مِنْ أَجْرٍ ۚ ﴾ كما

يفعله حملة الأخبار ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظة من الله تعالى ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ كافة، والجملة كالتعليل لما قبلها، فالمعنى: إنَّ هذا القرآن يشتملُ على المنافع العظيمة، ثم لا تطلب منهم في مقابلته مالاً، فلو كانوا عقلاء لقبلوا وانتفعوا من فوائده، لكنهم لا يعقلون.

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ﴾ كأين اسم ككم الخبرية، والمعنى: وكم من الدلائل الدالة على وجود الصانع، وعلمه وحكمته، وكمال قدرته ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي كائنة فيهما من الأجرام الفلكية، وما فيها من النجوم، وتغيير أحوالها، ومن الجبال والبحار، وسائر ما في الأرض من العجائب الفائقة الحصر ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ أي على الآيات ويشاهدونها، ولا يعبأون بها، والمراد ما يرون فيها من آثار الأمم الهالكة، وغير ذلك من الآيات والعبر ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها، ولا يلتفتون إليها، كأنهم كالأنعام لا يفقهون ولا يسمعون.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ﴾ في إقرارهم بوجوده وألوهيّته ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ بعبادتهم لغيره تعالى، وعن ابن عباس أن أهل مكة قالوا: الله ربنا والملائكة بناته، وقال عبدة الأصنام: ربنا الله وحده، والأصنام شفعاؤنا عنده، وقالت اليهود: ربنا الله وحده، وعزير ابن الله، وقالت النصارى: ربنا الله وحده والمسيح ابن الله، ومنهم عُبَّاد القبور، والناذرون لها والمنتظرون النفع والضر منها، وهم اليوم أكثر من الدود.

﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ أي عقوبة تغشاهم وتشملهم فلا يفلت منهم أحد ﴿ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ ﴾ فجأة من غير سابقة علامة ﴿ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ بإتيانها غير مستعدين لها، وهو كالتأكيد لاستحقاقهم العذاب.

﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨ ﴾.

﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ ﴾ وهي الدعوة إلى التوحيد وسمى الدين سبيلاً لأنه هو طريق الثواب، وفسرها بقوله: ﴿ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ ببيان وحجة واضحة غير عمياء ﴿ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ ﴾ أي أنا وأتباعي ندعو إلى الله على بصيرة ﴿ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ أي أنزهه تنزيهاً عن الشركاء فهو سبحانه واحد أحد، فرد صمد ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ أي وما أنا منهم في وقت من الأوقات، ولا أشرك به أحداً، إنما أنا مسلمٌ موحِّد.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَواْۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩ ﴾.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا ﴾ رد لقولهم لو شاء الله لأنزل ملائكة، وقيل: المراد نفي استنباء النساء ﴿ نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم ﴾ كما أوحينا إليك ﴿ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ ﴾ أي أهل المدن، لأنهم أعلم وأحلم، وأهل البوادي فيهم الجهل والقسوة، ونقل عن الحسن أنه قال: لم يُبعث رسولٌ من أهل البادية، ولا من النساء، ولا من الجنّ، ﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ ﴾؟ أي المكذبين للرسل والآيات، فيتعظوا بما حاق بهم من أنواع العذاب ﴿ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ الحياة الآخرة ﴿ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ

﴿ٱتَّقَوْا۟﴾ عن الشرك والمعاصي ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتستعملوا عقولكم لتعرفوا خيريَّة الحياة الآخرة، فتتوسلوا إليها بالإيمان والعمل الصالح.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ غاية لمحذوف دلَّ عليه السياقُ، أي لا يغرنهم تماديهم فيما هم فيه من الدعة والرخاء، فإن من قَبْلهم قد أُمهلوا حتى يئس الرسل من النصر عليهم في الدنيا، ويئسوا من إيمانهم، لانهماكهم في الكفر وتماديهم في الطغيان من غير وازع ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟﴾ بالتخفيف والبناء للمفعول، والظن بمعنى التوهم، والمعنى: أن مدة التكذيب، والعداوة من الكفار، وانتظار النصر من الله تعالى، قد تطاولت بالرسل وتمادت، حتى استشعروا القنوط من إيمان أقوامهم، ويئسوا من صلاحهم، وأيقن الرسل أن قومهم كذبوهم ﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ فجأة، أي لما بلغ الحال إلى الحدِّ المذكور، جاءهم نصرنا بغتة ﴿فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ﴾ إنجاءه، وهم الرسل والمؤمنون بهم ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي ولا يردُّ بطشنا وعذابنا عن القوم المجرمين إذا نزل بهم، ولا يخفى ما في الجملة من التهديد والوعيد، لمعاصري الرسول ﷺ من الكفرة المجرمين.

﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾.

﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ﴾ أي في قصص الأنبياء عليهم السلام مع أممهم، وفي قصة يوسف مع إخوته ﴿عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ﴾ أي لذوي العقول، المبرأة عن شوائب القذر والكدر، والركون إلى الحسِّ.

والعبرةُ: الحالةُ التي يتوصل بها من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد، ومعنى الألباب: العقول ﴿مَا كَانَ﴾ أي القرآن الكريم الموحَى إليك ﴿حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ أي يُختلق كما زعم الكفار ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب السماوية ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ مما يحتاج إليه في الدين، أي ما من أمرٍ دينيٍّ، إلاَّ وهو يستند إلى القرآن بالذات أو بالواسطة ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةً﴾ يُنال بها خير الدارين، ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي يُصدِّقون تصديقاً معتداً به، وخُصُّوا بالذكر لأنهم المنتفعون بذلك، وأما ما عداهم فلا يهتدون بهداه، ولا ينتفعون بجدواه، والله الهادي إلى سواء السبيل، لا رب غيره، ولا يُرجى إلاَّ خيره، وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة يوسف»

* * *

obeikandl.com